حكايات البيت المسكون

مشاهد من أم درمان

حسن إبراهيم

Author: Hasasn Ibrahim

المؤلف: حسن إبراهيم

Title: Hekayat AL-Bayt AL-Maskon

العنوان: حكايات البيت المسكون

First Edition: 2005

الطبعة الأولى: ٢٠٠٥

Cover Illustration and drawintgs by: Hassanin

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية: حسانين

Cover Design by: Afaq

تصميم الغلاف: آفاق

رقم الإيداع ٢٠٠٤/١٩٩٥٠

الترقيم الدولي ISBN

٩٧٧-٦١٤٨-٠٣-٤

آفاق

للنشر والتوزيع

٧٥ شارع القصر العيني- أمام دار الحكمة- القاهرة

تليفاكس: ٠٢٧٩٥٣٨١١ (٠٠٢)

Afaq Bookshop & Publishing House
75 Qasr-Alaini St., in Front of Dar-Alhekma
Tel.Fax (002)02 7953811

إهـــداء

إلى كلّ مَنْ علّمني حرفًا

حسن إبراهيم

الكتابة بعد فوات الأوان

في نفس كل من امتشق القلم غصّة وفي قلبه وجل. فالفشل أقسى ما يمكن أن يحل بمن يظن في نفسه القدرة على التحدي. أبدأ حكاياتي المتفرقات بذكر أحبائي أهل الخطوة. من بحيرى الراهب وبشر الحافي والحلاج وإلى تشي غيفارا وكل من ثار على القبح والطغيان.. هم أحباب الله وصناع الجمال بصمودهم وبراءتهم وقدرتهم المتناهية على الوقوف إجلالاً لدمعة طفل أو خصلة شعر تهدلت على جبهة حسناء غاضبة، أو لعاب سال من فم عجوز اختفت أسنانه، يرتجف غضبًا وخوفًا وعجزًا بعد ألف ألف مذبحة.. هم الذين يمنحون هذا الكون معناه في التسامي الأبدي للفكر على الدوغمائيات المحفوظة منذ ألف عام. هل أنا من يستطيع التعبير عن معنى وجودهم؟ أشك في ذلك، لكنها كلمات خرجت من القلب، وبعض ومضات عقل قاصر، وأرجو أن تستقر في القلوب لعلها تُحْدث بعض الغضب وشبح ابتسامة. فالغضب مفتاح التوثب، والابتسام قد

يكون مقدمة العاصفة والحب "فلا تحسبن الليث يبتسم ".
فهيا نهب على كل صنم يطل علينا من عمق دواخل أنفسنا ومن شاشات التلفزيون وصابون تايد وملح أندراوس المنعش الفوار وسيارات الكاديلاك وباقي الإعلانات البذيئة التي تباع فيها العوازل الطبية على أنغام موسيقى فيردي، الملح الفوار وسيارات الكاديلاك ومارشات تشايكوفسكي. وتستجدى فيها التبرعات على أنغام مزامير داود أو تراتيل منتقاة من سورة النساء. وما بين الشيخ كث اللحية الذي يستجدي وبين فتاة إعلانات مكيفات الهواء حليقة الإبطين تكمن جدلية العجز المعاصر.

فلنحرق ما بدا لنا ونهدم المعبد من أساسه. سنستنشق عبق الحرية ولو أتى مخضبًا بدماء مليار نسمة، ولنعشق حتى الثمالة. وليكن العشق مارقًا على كل قانونٍ. دعونا نمارس الجنون والمجون والهرطقة واللذة، ونرمي دفتر الحسابات الكثيرة في أول مرحاض قذر ولو لمرة واحدة في رحلتنا القصيرة على هذه الأرض اللعينة. هناك من يعشقون في المسجد أو الكنيسة ومن

يتعبدون على دوي الرصاص في المدن العتيقة، أو الأحراش الاستوائية.. هناك من يعبّ المشاريب الحارقة في حانة ثم يمسح دمعة حزن، ويثور ضد الطواغيت والعهر المتلفز.. قد نخسر ما تبقى لنا من عقل، وقد نحرق ما راكمناه سنيناً طويلة في صرخة تحدٍّ واحدة، أو ينهار ما شيدناه على أساس من رمال في "ضربة" قلم شديدة الندرة. إنها رصاصات الكتابة كما قال أستاذي "نغوغـــي واثيونـــغ فـــي" THROUGH The Barrel Of The Pen" لكن فلنجرب لذة الجنون ونشوة التمرد النزق والمشي المتعرج والمستقيم معًا... فنلعشق ونبصق على كل النواميس والقوانين. فلنجرب الشوارع بلا أحذية، أو ملابس دعونا نشيع الفوضى. فالعمر قصير والتاريخ لا يرحم إلا من خرجوا على النصوص واختطفوا أقدارهم بأيديهم.

حســن إبراهيــم
كاتب ســوداني

استهلال

قلم يحاول مكافحة ألف عام من الركام
ونستهل بما قبل البداية!
ماذا لو أطاع القومُ النبي؟!

كان يمشي في قومه آمنًا مطمئنًا، وكان من فرط اطمئنانه يوزع الابتسامات ويأكل الطعام ويجوب الأسواق. حادَ عن مساره اليومي ذات مرة، أحس بتناقض غريب في ما يراه وما لا يراه. كأنما انقلب كيانه.. ألم في أسفل بطنه وجبهته.. عين ثالثة برزت بين حاجبيه، وأخيلة تدافعت في وجدانه فلم يتمالك نفسه فصرخ. نظر مرة أخرى فرأى المستقبل عبر نظارتين من عالم البرزخ.. داهمته النبوة من حيث لا يحتسب. أتاه الروح القدس: أخبره بأسرار لو اطّلع عليها القوم لأصبح كل منهم نبيًا يسعى. ترى لماذا لم يبح بأسراره؟

سأل صديقنا ببراءة الأنبياء وحرص التقاة النابهين: وماذا لو أصبح كل منهم طاهرًا نقيًا تقيًا مثلي؟ ابتسم الملاك في مرارة وقال:

إنها يا صديقي نعمة تفاحة الشك ومكابدة الفكر منذ العبقرية الأولى حواء وحتى أول أميبا. فبعد أن تدرجت الخلية نشوءًا وارتقاءً حتى نزلت من غصون الأشجار بشرًا سويًّا كانت تحمل مرارة الاختيار الأول الذي كُتب في اللوح المحفوظ بدم ورماد حضارات وأجيال.

فردد النبي مناجاته وسؤالـــه المرير: ماذا لو كذبوني؟ وكيف ألومهم؟ قال: استفت قلبك، وأغمض عينيك كي ترى ما حولك؛ فنور الشمس خادع، وأجساد القوم من تراب أتت وإلى تراب مآلـــها.. قم وامتشق حسام عقلك.. ردّدْ معي في سرك ثم اجهر بكلمة الحق تخرج حانية حادبة مخلصة مستقيمة ناصعة اللون. لا تُلْغِ جسدك.. ستعرف الشبق والجوع والمكابدة الحائرة.. ستعرف الخذلان رغم نور النبوة الذي يشعّ من عينيك.. فافتح بابك واسعاً وادع القوم إلى ما خبرتك إياه..

أغمض النبي عينيه ثم رأى. دمعت عيناه، وارتجف قلبه وجلاً. ففتنة العلم أشد قسوة من فتنة المال وشبق

الجسد وأنين الجوع ومرارة الفشل. نزل صديقنا يحمل مرتبة نبي من الغار المنير رغم ظلامه الدامس، يحمل فانوس الحقيقة، يبحث في أرجاء المدينة العتيقة عن قلب مخلص في وضح النهار فما وجد إلا المرأة.

من المرأة أتى وإليها يلجأ، وفي عبقها يمارس حياة ويكابد عصاب الطليعية التاريخية. إبتسامه نادر وهو يرى الأرض ثائرة تتميز غيظًا من عجز القوم عن استنباط ثرواتها. ولآلاف السنين ما عُرف باطن الأرض إلا كمخزن للجن والأساطير. وكتب البلـــهاء والأدباء عن رحلات إلى ظلماتها.

وما باطنها إلا نور ونار ونعيم سرمدي وخير للناس. إنها الرحم الأزلي والمرأة الأولى شابة يافعة نزقة ثابتة ما تميزت وتمايلت إلا غضبًا وطربًا.

التراب كائن حي، منه أتينا وفيه نلحد وفي باطنه الخير.. لكن من يأتي لنبي بدوي "بحفارات أرامكو.."؟

اهتزت الأرض طربًا وخوفًا.. فلحظات تحريك التاريخ تنقلب بعد برهة إلى دمار وإزهاق لروح الطبيعة التي عاشت في أمان عندما كانت الطحالب المسالمة تهتز لتفرز أول كائن متعدد الخلايا في كوكبنا المخيف الجميل المبهج المحزن المبكي المضحك الساخر المتلون القميء المستهتر المتغطرس. عواصف أبرقت وأرعدت، وأمطار ونيران زلازل وبراكين وظلام دامس ونهار حارقة شمسه وغيوم تمطر ماءً حمضيًّا يزهق الأرض وما عليها.

هنا خيمتي الإسمنتية.. مغروسة قرب البحر، لا يهزها مد ولا يخفف من وطأة قبحها، والملل الذي يعشش في جميع مسامها جزر. تشرق الشمس عليها أو تغرب فلا هي اهتزت كخيمة الأعرابي الأولى، ولا هي ناطحة سحاب "يسر لونها الناظرين".. إنها أنا لعمي[1] الوجه، بنفاقي الاجتماعي، بخوفي الذي يسيطر على

(1) لعم: تعبير دارج يجمع بين لا ونعم.

جميع خلايا جسدي. إنها المآذن التي تصدح بالنداء إلى الصلاة فيستجيب المذعورون المنهمكون في الاستهلاك يستمنون وجدانيًّا مع ما ينتظرهم من "حوريات" و"ولدان" فتراهم يخشعون وأعينهم على "الكفيل" أملاً في نظرة إعجاب، وهزة رأس دليلاً على "أن هذا الأجنبي لن يشكل خطرًا من أي نوع" أو لعلــها ــ هزة الرأس ــ إقرار من الكفيل بتقوى وصلاح المستجيب المصلي "المستمني" وجدانيًّا.

إنها الشبق والاختباء الحذر خلف الرموز في زمان المواعظ المقنبلة والسيوف المشهرة التي تعمل في الفكر تقطيعًا. فدونكم ما سطره القلم الخائف المتوجس لا نظام في هذه الكلمات ولا انتقاء.. إنما بعض رماد القلب نفضته حبرًا "افتراضيًّا" على ورقة افتراضية في الشاشة الإليكترونية أمامي.

كنتُ قد حسبتُ ذات يوم أنني في نقاء بشر الحافي وشجاعة جيفارا وصراحة المعري، ومجون أبي نواس

وثورية كارل ماركس وفوضوية باكونين وصرامة لينين، فلم أجد إلا بقايا من آثار شجاعة ولت، ورماد مشاعري الجياشة التي احترقت بعد ألف ألف قصة حب.

فدعونى أستهل بإعلان براءة ذمتي من كل ادعاء لشجاعة نادرة، أو لصراحة غير معهودة، فأنا نتاج هذا العصر المعبق برائحة البارود والنفط والجثث التي تناثرت في دائرة كبيرة تبدأ من أقصى أدغال الأمازون وتنتهي في فلسطين التي ركلناها إلى الأعلى في التفاف غير أنيق على الحقيقة. نحن في زمن القنابل الذكية والإنترنت والديكتاتوريات الصريحة والمقنعة والنقاب النفطي الشهي الذي يخفي ألف ألف احتمال.. فلماذا أكتب؟

لأنه لولا المحاولات الأزلية المتكررة من رجال في قامة الحلاج وبشر الحافي أو دانييل أورتيغا أو باتريس لوممبا أو أليكسندر بيركمان أو أيرنست هيمنغواي أو

جاك كيراواك أو عزرا باوند ـــ رغم تقريعات غيرترود شتاين المتكررة وهي تضن بجسدها عليه ـــ لربط الميتافيزياء بلقمة الخبز، لاستولى الكهنة على كل شيء. وليت كل الكهنة مثل صديقي البرزخي بشر الحافي، الصوفي الحالم الأبلـــه الطيب الغاضب.



بشْــــر

كان نهاره قائظًا، ورياح الخماسين تلـــهب وجهه. كان يمشي حافيًا على العشب الأخضر الذي يملأ أرجاء حاضرة الخلافة مركز التمكين ورمز الحضارة.

كان بشر الحافي يجوب أحياء بغداد قرب دجلة.. أو هكذا كان يعتقد الرجل الزاهد. لكن ما بالـــها هذه الأرض جافة تلسع قدميه النحيلتين؟ ثم من أين أتين؟ نعم هؤلاء النسوة؟ ماذا كن يحملن على رؤوسهن؟ وما الذي غيّر ألوان جلودهن إلى هذا السواد الحالك بلون الأبنوس، بعد تلك السمرة الخمرية البغدادية اللذيذة؟ ثم ما هذه المركبات الغريبة التي تمشي على الشوارع بلا أحصنة ولا حمير. وما هذا الضجيج والجو المعبق بالدخان والغبار؟..

ماهذا القبح الذي يحيط بي كالسوار بالمعصم؟ وما لي أشم رائحة الخوف في كل شيء حتى الزرع والحجر؟

لقد بِتّ والله في فراشي داخل بيتي البغدادي فما لي أرى الرؤية في وضح النهار؟!.. تلمّس بِشْر نفسه فما وجد شيئًا.. بحث عن مكونات الحلم في ذاكرته فوجد نفسه في كامل اليقظة.. فكر قليلاً ثم قدّر أنه تحول إلى مشهد داخل رؤية صوفية، فقال لنفسه: لا تَخَفْ يا بشر، سيأتيك أحد رفاقك الروحيين، أحبابك من عالم البرزخ، أطياف الماضي والحاضر والمستقبل، يتساقط الزمان أمامهم وقد طويت المسافات تحت أقدامهم، أهل الخطوة رضوان الله عليهم أجمعين.

الخضر عليه السلام ولقمان الحكيم وابن عربي والحلاج وفرح ود تكتوك والصايم ديمه والمرسي أبو العباس والرفاعي وبوذا والشيخ البدوي وعبدالقادر الجيلاني وأحمد التيجاني وكريشنا موردي والأم تيريزا والمهاتما غاندي، وقبلـــهم وبعدهم رهط من التقاة أهل الحظوة والخطوة..

لكن بِشْرًا كان يبحث عن من كان ولا يزال أقربهم

إلى نفسه، بحيرى الراهب الذي رآه بشر بأمّ عينيه قبيل غروب يوم الجمعة، عندما تصدى بشر وتلاميذه للعسس الذين حاولوا إغلاق مقصف ذلك التاجر الفارسي. وكان مِنْ رأي بشر أن النصيحة بالحسنى خير من القسوة والعدوان اللذين لا يؤديان إلا إلى العناد والعنف المضاد. فما كان من بحيرى إلا أن زجره قائلاً: يا بشر امدد سيفك النوراني.. فما طاوعت نفس بشر الرقيقة، فابتسم بحيرى مشفقاً وتوجه إلى تلاميذ بشر وقال لــهم: مدوا أيديكم.. فخافوا أن يتجاوزوا شيخهم.. ولبثوا برهة صامتين.. لكنّ ارتفاع قسوة العسس إلى حدّ قتْل الأطفال في السوق أجبرت تلاميذ بشر على مد أيديهم النورانية فانطلقت منها نار التهمت سيوف العسس فلاذوا بالفرار مرتعدين من كرامات الأولياء. وخرّ بشْر مغشيًا عليه. ضعف الشيخ لحظة التحدي كـ "صاحب الحوت في الكتاب المقدس" لكنه قام من عثرته.

كان ذلك التمرد رؤية وحلمًا وخط حياة..

لكن أين أنت يا بحيرى، يا من كلم رسول الله شابًّا ويا من بشره قبل نبوته.. أين أنت؟ أما زلت مستعصمًا بكهفك النسطوري ترفض النزول إلى دنيا البشر إلاّ حين تحلّ الأزمات والنائبات؟!..

فجأة دهمه نور حادُ فأغلق بشر عينيه وإذا ببحيرى الراهب يقول لـــه: إنك على صواب يا صاحبي، أنت في عالم ما فوق الرؤية وقبل البرزخ.. عليك تابعي وحبيبي واجب قديم.. فدونك ضفاف النيل لا تُبقِ فيها على ذرة شقاء، لا تجبن واضرب بسيف الحقيقة كل همسات الوهن.. وإذا ببشر يضحك ويقول: أين أنا والنيل يا بحيرى يرحمك الله.. فإذا ببحيرى يُقبل عليه غاضبًا، وينتهره: ألا تدري يا بشر؟ ألا تدري يا بشر يا صاحبي الزاهد؟ في النيل كانت البداية وفيه ستكون النهاية؟..

فيه التقى آدم بحواء، وخرجت منه بلقيس في رحلتها النورانية نحو أرض فلسطين وحبيبنا سليمان.. فيه

الأرواح تغتسل بماء عذب سلسبيل ألف ألف مرة كل يوم، وتمارس العشق ألف ألف مرة.. إنه البداية والنهاية يا بشر.. اغسل أرضه حبًّا ودمًا وماءً.. النيل صاحبي وحبيبي رغم طفيلياته وجراثيمه يشفي العليل ويفرح المكروب، إنه عطر السماء ودموع الملائكة اجتمعت فوق غابة الأبنوس، فاغترف من غيث الحقيقة واضرب "بعصاك الحجر".

وقف بشر مذهولاً "بداية ونهاية ماذا؟" ماذا يقول صاحبي بحيرى؟ وما هي الأحجار؟ وأين هو العطر السماويّ من هذه الروائح والجثث المنتفخة والسحنات البائسة؟ ترى أهو الشيطان تَمثَّل في شكل الراهب الزاهد؟ أم هو بحيرى بعينه يحاول تلقيني درسًا ما؟ ما بال الرؤى تبلبل تفكيري وهي التي كانت مشكاتي في دياجير الواقع، وملاذي عند بلوغ القلوب الحناجر؟.. وقف بشر وهو يرتعش من الخوف والحيرة، وبعض الغضب، فهو لم يسمع مثل تلك اللهجة الغاضبة من

بحيرى قبل تلك اللحظة.. اذهب يا بشر ــ قال لــه بحيرى ــ فقاتل عن أمة ركعت لجبابرة الأرض وأغفلت جبار السماء فران عليها الذل ولوثت أعماقها المسكنة.. قاتِل يا بشر ولا تَهبْ، قاتل ولا تهب..

سأل بشر إحدى النسوة " بالله عليك أين دار الحكمة" وكانت رائحة عرَقها القوية تزكم أنفه، وكان عطره الزيتي النفاذ يغثي نفسها فسدت أنفها وسد أنفه..

"الراجل دا مجنون ولاّ كيف" قالت المسكينة لصاحباتها بعربية تشوبها لكنة ليست غريبة على بشر، فقد كان يسمعها من فم بحيرى وهو يحاول سرد قصة قسّ بن ساعدة، أو عندما حكى لــه كيف التقى سيد الخلق محمد ﷺ. فبحيرى كان سريانيًا يتحدث العربية بلكنة..

فقال لها بشر وعلى ملامحه براءة الزهاد ونقاء المتصوفة: أين أنا يا فتاة؟. وكانت من تحدثه طويلة

القامة هائجة الشعر سوداء كالليل يبدو عليها الوهن وغطى جمالــها تراب كثيف. أنفها أقنى حاد التقاطيع كمعظم نساء الدينكا[1]، ورغم أسمالــها البالية فقد كانت مستقيمة الظهر حلوة التقاطيع.. يهتز ثدياها ويبرزان ويتواريان تحت أسمالــها البالية.. همت الزنجية أن تضربه بأي شيء أمامها، فقد كانت هموم الدنيا قد تكالبت عليها من كل جانب، وها هي تعود إلى بيتها أو قل كوخها الذي بنته من أكياس الأسمنت القديمة والخيش وبعض الصفيح، تعود خالية الوفاض فلم يكن في السوق ذاك اليوم حتى "زبائن اللذة السريعة". لكن شيئًا في ملامح بِشْر أثّر عليها بشكل عجيب. وأحست بالطمأنينة لــهذا الرجل الملتحي الذي يلبس ثيابًا من الصوف لا تكاد تواري سوأته.. فقد كانت ميري ترق للمجانين ولو كانوا "أولاد عرب" وهذا الرجل يبدو غريبًا، كانت في وجهه براءة وافتر ثغره عن ابتسامة عذبة عندما رأى ملامحها تلين قليلاً. أين أنا؟ أعاد عليها السؤال.. أهذه

---

(1) الدينكا: أكبر قبائل إفريقيا وجنوب السودان.

بلاد النيل؟ فهزت رأسها ضاحكة باستسلام: يا حمار دي إسموا بلد سودان.. إلعن أبو سودان..

وتركته بسلام. مشت في طريق المعسكر حيث تقطن أو تعيش مؤقتًا حتى يأتي أجلــها، إن لم يكن بالجوع فبالرصاص أو ربما بمرض غامض. قال لــها الطبيب إنه يصيب من تمارس البغاء. كان اسم معتقل التعذيب ذلك "دار السلام" هو أقرب ما يكون إلى معسكر اعتقال. مجموعة خيام متنافرة الألوان، وأكواخ صنعت على عجل من الكرتون والصفيح، ورائحة نتنة تعبق كل شيء، وبؤس ووجوه حوّلها الجوع والتهميش والقهر إلى عبوس دائم.. إنه حزام الفقر "الزنجي" حول العاصمة الفقيرة العصية العنيدة الكؤود..

التفتت نحوه بصورة لا إرادية، فوجدته لم يراوح مكانه. أومأت إليه أي اتبعني. فمشى بشر وراءها، وقلبه يهتز وجلاً وحبًّا وفضولاً وثورة.

أحقًا هذه بلاد النيل؟!.. أهذه الأرض القاحلة الخالية من الزرع والضرع هي بلاد النيل العظيم؟!.. وأين الشجر والرخاء؟ أكان علماء بغداد ورحالتها يكذبون عليه عندما وصفوا لـــه النيل العظيم واهب الحياة وصانع الحضارات؟!.

تعثر فوقع على الأرض قرب جيفة بقرة نافقة، جيوش الذباب والكلاب الضالة والدود غطته فصاح قرفًا ونفض ملابسه القليلة حتى كشف عن أسفل جسده، فضحكت ميري رغم كل شيء واستمرت في مشيتها المتثاقلة.. ربما كان ينتظر من دليلته أن تقيل عثرته.. لكن ما ذنبها؟ ألا تخدمني الزنجية ولو شئت لاشتريتها وأعتقتها.. قال لها: يا فتاة؟ لم تتوقف..

إن كنت عبدة سأشتريك وأعتقك لوجه الله تعالى.. قال بشر هذا وهو يحسب الدريهمات القليلة في حزامه.. كان يحس أنه كالعادة يمنح الخير والحب.. وكان يحسب تضحيته بآخر ما يملك تشفع لـــه عند الزنجية فتقف لتبادلـــه الحديث.

فما كان من المرأة إلا أن التفتت إليه وعلى وجهها نظرة غضب وحشية..

أنا عبد يا مندوكورو[1] يا ولد حرام؟.. وصفعت بشر على وجهه ونهشت جلد وجهه بأظافرها الحادة المتسخة فانقلب مذهولاً حتى غاب عن الوعي.

استيقظ بعد برهة وكان يرتجف غضبًا وشفقة وإحباطًا.. ناداها بصوت حاول أن يخرج ثابتًا وقورًا فما استطاع.. فخرج الصوت مهزوزًا فيه آثار غضب وبكاء: قفي يا فتاة.. فلم تُعِرْه انتباهاً وظلت تمشي ــ هذه المرة خببًا كناقة غاضبة بعد سباق محموم مع جمل فحل ــ وهنا مد بشر صوته بالصياح:

قفي بالله عليك!

توقفت الزنجية عن تحريك قدميها الطويلتين، والتفتت إليه وما زالت عيناها تقدحان شررًا غاضبًا. سألــها

(1) مندوكورو: اسم العرب في الدينكا.

الزاهد في لـــهفة:

ــ ما اسمك؟

ــ عايز شنو؟

ــ قلت لكِ ما اسمكِ؟

ــ ميري

ــ مريم؟

ــ ميري.. قالتها ولوت شفتيها باستهجان.

ــ لماذا صفعتيني وأنا أريد لك الخير؟!

ــ أنت مندوركور ــ ولد عرب ــ معرص تقول لي عبدة!

ــ أنا من بغداد وأصلي من فارس.

ــ فارس ولاعارس ما تقول لي عبدة.

ــ أنا آسف.

ــ معليش.. دلوقت إنت عايز شنو؟

ــ أريد مد يد العون يا أختاه.

ــ أنت ما بتعرف عربي ولا شنو؟

ــ أهذه أرضك؟

ـــ ده أرض بتاع الحكومة.

ـــ أهذه بلدك؟

ـــ لا أنا من جوبا.

ـــ وأين جوبا؟

ـــ بعيد. وأشارت بيدها لجهة ما.

ـــ وما الذي أخرجك من جوبا؟

ـــ العساكر كتير وأكل شوية.

ـــ ومن أين تأكلين؟ من الذي يطعمك؟

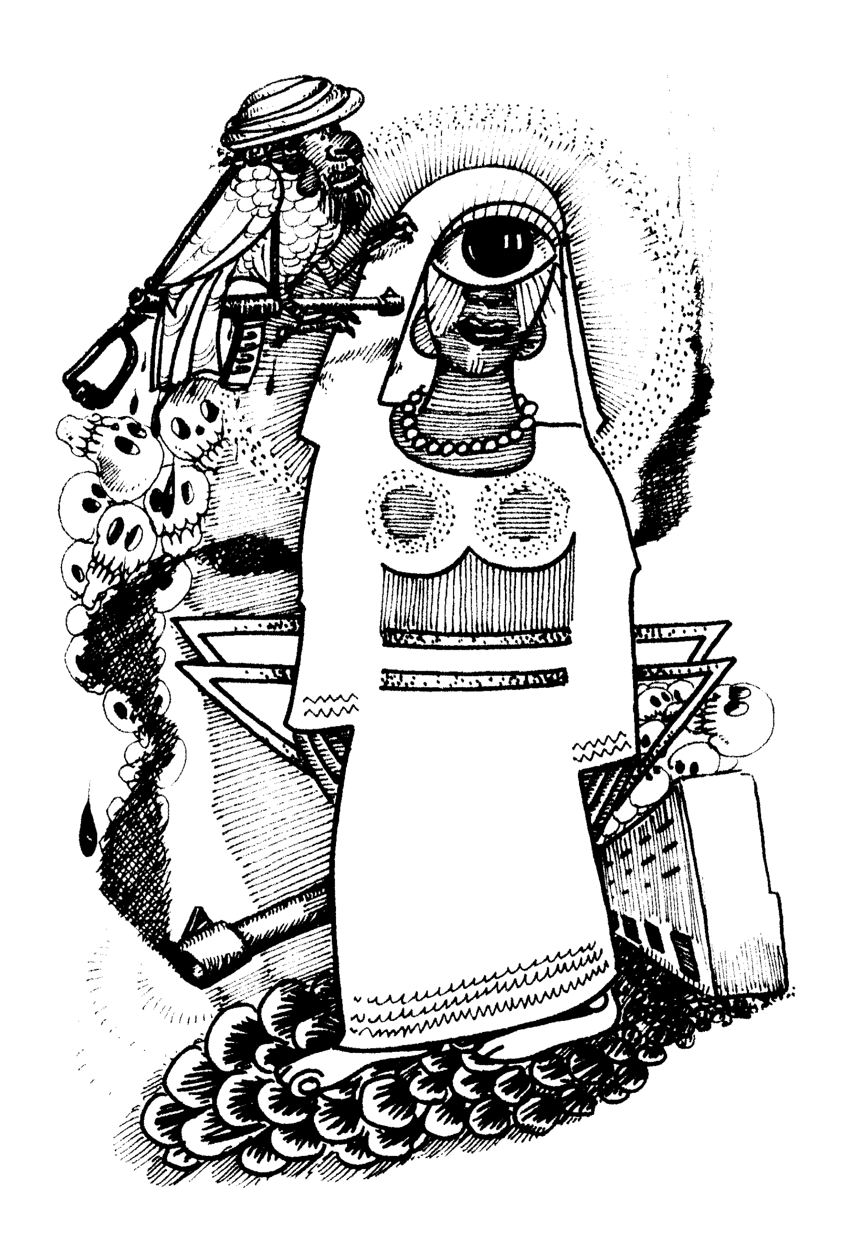
ـــ نأكل في السوق مرة ومرة في المعسكر.

ـــ هل أكلتِ اليوم؟

ـــ ليه تسأل؟ عندك أكل؟

ـــ عندي مال سأشتري به أكلاً وأطعمك يا ميري.

ـــ يلا جيبوا قروش عشان ناكل ـــ قالت ميري في لهفة، وكادت أن تهجم عليه لتجرده من حزامه.



نفض بشر كيسه أمامها فلم يسقط منه إلا درهم من نحاس.. فنظرت إليه ميري وسالت دموعها وهي تقف منتصبة القامة! كان بعض مترفي الكتاب يتحدثون عن شموخ الجائعين.. وهل في الجوع شموخ؟. لم تَدْرِ ما هي القطعة النقدية التي سقطت من كيس المندوكورو لكن من الواضح أنها لن تقيها غائلة الجوع، ولا الاستلقاء المهين تحت حراس المعسكر.

فصاح بها بشر وجرت دموعه على خديه عندما رأى دموعها.

ـــ ما في أكل يا مندوكورو ما في شي، حرب في، أكل ما في، قالت ميري باستسلام وصبر نافذ.

ـــ ومن يتحاربون؟

ـــ العساكر، ودينكا، وفي أولاد بتاع الله ـــ كتائب الدفاع الشعبي ـــ ولد عرب قتل ولد جنوب، ولد جنوب يقتل ولد عرب.. .

ـــ مَنْ أبوكِ؟

ـــ ملوال.

ـــ أين هو؟

ـــ قتلو ولد عرب.

ـــ زوجك؟

ـــ دينغ قتلوا ولد نوير كان بيحارب مع ولد عرب.

ـــ ألكِ ذرية؟

ـــ ذرية يعني شنو؟..

ـــ أبناء وبنات..

ـــ ماَتوا.. ما في أكل.. في ملاريا وعساكر وحكومة.

ـــ وما العمل يا ميري؟

نظرت إليه شذرًا وهمت بضربه مرة أخرى..

وقف بشر قليلاً وحاول أن ينادي، ما هذه الأرض التي بشرتني بها؟.. كيف نرفع الظلم عنهم؟ من الذي قتل هؤلاء؟ من سرق طعامهم؟ وهل يقبل الظالمون النصيحة؟ والله لأذهبن إلى كبيرهم أو إلى آمر العسس..

لأسديه النصيحة؟ قالـــها بشر و"براءة الأطفال في عينيه".

كانت ميري تدرك أن الوقت تأخر، وأن موعد جولات العسس في دار السلام قد أزف. وكانت تدرك أن تواجدها في الظلام فتح شهية الجلادين للأسئلة والضرب وأعقاب السجائر التي تطفأ في الأماكن الحساسة، ثم الجنس المجاني مقابل التغاضي عن فتح بلاغ. فالعسس غلاظ القلوب للغاية وعندما يقبضون على من هم مثل ميري، فهم يبحثون ككلاب الحراسة عن "الخونة" في ثديي ميري وفخذيها ومؤخرتها، ودائمًا ما يكتشفون مؤامرات وكلـــها بحمد الله "دولية" من صنع "الصهيونية" و"أمريكا" و"مجلس الكنائس العالمي".

وتذكر ميري أنه حتى عندما أتى ذلك المسئول ذو اللحية البيضاء والابتسامة اللامعة.. ووزع عليهم صناديق الحليب المجفف تحدث طويلاً عن مؤامرة دولية.. وأن أمريكا تحاول استغلالـــهم – أي أكوام

العظام الناتئة والبطون المنتفخة جوعًا — في مآربها. وأن الصهيونية الشيوعية الصليبية الحاقدة تحاول تأليبهم ضد النعيم الذي يلاقونه تحت حكم النظام الحضاري الجديد...

كانت كاميرات التلفزيون تصور اللقاء "الجماهيري الحاشد" وبالأخص توزيع صناديق الحليب المجفف. لكن سرعان ما انتشر العسس بعد ذهاب المسئول والكاميرات وانتزعوها من أيديهم، رغم أن أكفهم التهبت تصفيقًا للمسئول الكبير كلما أومأ إليهم بذلك المشرف على المعسكر.

ثارت ضجة في أوساط النازحين، وهموا بالثورة على العسس فما استطاعوا. فعاقبة الثورة كانت وخيمة. وكان العسس مدججين بأسلحة مخيفة لا قبل لـــهم بها. أما ميري حسناء المخيم فقد كانت تدرك أن سبيلـــها الوحيد إلى وجبة هانئة هو منح ما تبقى من جسدها للضابط الكهل الذي رمق ثدييها بنظرات لا تخفى دلالاتها.

لكل هذا أسرعت ميري إلى منزلـــها ثم عندما التفتت تودع بشر، وجدته ينتحب على جانب الطريق، يبكي ظلم الإنسان لأخيه الإنسان. وقال لها: يا ميري لقد قررت أن أذهب معك إلى الحاكم أو إلى كبير العسس كي أرفعَ عنكم الظلم بإذن الله.

احتقرت ميري عجزه ودموعه، فلم تتمالك نفسها وزجرته قائلة: إنت راجل مجنون ولا شنو؟!!!، لو معاك حاجة يشربوه ولا ياكلوه تعال. ولو معاك قروش تعال ورا الخرابة، نعملو مع بعض شوية شوية لكن تجي كدا فاضي لا.. لا.

فقد حسبت ميري بشر طالب لذة "مجانية" وهي لا تمنح اللذة مجاناً لأولاد القحبة.. وتركته وهى ترتجف.

وقف بشر يتدبر ويحاول التحقيق في تلك الحالة الكئيبة.

ما كان التراجع من شيمته. لكنه لم يكن متهورًا.

وكان بشر على رهبانيته يحب الحياة بل لعلـــه أحب الحياة لأنه كان راهبًا متقشفًا. فلو تقدم وحده لظن الناس أن به مسًّا من الجنون. لكن ميري تلك الفتاة الباسقة الطول كانت مجنونة أيضًا. فقد كانت تتلفظ بأشياء عجيبة عن دواب تصنع من الحديد والنحاس.. ولا تجرها الخيول ولا الحمير وعن عصي تلفظ نيرانًا، وعن طيور من حديد تطير في أرجاء الماء وتسقط كتلاً من اللهب. لعلـــه كان هذيان امرأة هصر كبدها الجوع. أو لعلـــها من غواني بلاد النيل اللاتي فقدن عقلـــهن بعد حياة من المجون والتبذل.

وهنا أدرك بشر الحافي أنه في عصر غير عصره، وأن قواعد اللعبة تختلف كثيرًا عن سيوف وعسس وصيحات غضب من المكلومين يستجيب لـــها الحاكم أو يجبره الخوف من غضب لابسي الصوف على الاستجابة.

هـــرب بشـــر إلى حلمه يستنجد بأطياف من ماضي

البشـــرية المجـــيد، أو العـــريق في الإجرام. صاح: يا بحيرى يا قس بن ساعدة، يا موسى وعيسى ومحمد، يا ناري في ليالي الصقيع وروضتي في لـــهيب الظهيرة، أيـــن أنـــتم؟ بـــالله قولـــوا لي أين الخلاص؟ أو ما هو الخلاص؟.

ساد صمت رهيب قطعه على بشر مرور عربة تجري بلا حصان يجرها، وتصاعدت منها أصوات أناشيد نشاز قبيحة تهتف لشخص ما. وقف بشر مشدوهًا وقد جرّب الخوف من البشر لأول مرة في حياته. ثم جلس القرفصاء يلتحف صوفه، وغربته، وعجزه، وقهره، وقد استحال الكون إلى كتلة من القاذورات التي أثقلت على وجدانه أكثر من العطش الذي كان يمزق حنجرته.

أما ميري فقد تسللت إلى معسكرها دار السلام وهي تتضور جوعًا، تبحث عن ضابط الأمن الذي تعرف جيدًا وسيلة إرضائه ــ ولو عزَّ عليه الانتصاب ــ

وجدت ميري ضالتها، فافترّ ثغرها عن ابتسامة حاولت جاهدة أن تكسبها مظهر الاحتراف الذي يلـــهب شبق الضابط المتهالك، وقد اضمحل نور الشمس إلى غروب حزين. وجدته وهو يصلي صلاة العشاء فانتظرته حتى يكمل ركعاته، لكنه ما إن اشتم رائحتها المميزة حتى قطع تعبده هاجمًا على تضاريسها يتسلق شجرة الأبنوس ينهشها وتنهشه حتى خار على الأرض في خدر لذيذ.

الأصل في الكون الحركة، والخوف من المجهول طالما أورد الطموح منا موارد الـــهلاك. الجسد حق، والشبق حق، والجوع حق، والمرض حق، والأجساد المتحللة فوق أديم الأرض حق. خيط واهٍ ذاك الذي يربط بين البشر وبعضهم البعض، وواهية هي الفروقات ما بين الحقيقة والخيال. احتمالات الماضي وزيف الحاضر ــ الحاضرــ وكآبة المآل الذي نُطلق عليه المستقبل. بشر الحافي كان يبكي عجزه ويتوق إلى مستقبل هو ماضٍ بالنسبة لمن يقبعون في مقاعد متحركة من عربة الأقدار..

ارتفع جسده في الـــهواء، جفت مياه النيل، ورست سفينة أقداره على بستان بغدادي تحرسه "وحدات من الحرس الجمهوري".. حوكم بشر كجاسوس وأعدم في سجن "أبو غريب".. أو لعله انتهى به الحال في منتجع "حوران" أو ربما السراية الصفراء، أو لعلـــه حَطّ في شارع فيدل كاسترو بسان فرانسيسكو يستلذ بلفافات الماريجوانا وغليونات الكراك مع مثيلي الجنس، أو ربما كان الأمر كلـــه أضغاث أحلام بعد سهرة بغدادية صاخبة نسي فيها بشر تقشفه لليلة واحدة فأطلق العنان لرغباته المدفونة تحت أسمالـــه الصوفية البالية.. كلـــها احتمالات لا نهاية لها.

حكايات البيت المسكون

قديمًا قال أجدادنا "لسانك حصانك"، وقال النبي العربي ﷺ "ما يكب الناس في النار على وجوههم إلا حصائد ألسنتهم".. وقال المثل الخالد "الخواف ربى عيالو".. أما من ناحيتي فأنا من مجتمع عريق في الجبن وتفادي المواجهات.. ـ رغم خرافاتنا عن البامسيكا[1] والهمباتة[2] وقبل ذلك عنترة وأبو زيد الهلالي، وشجاعة السودانيين الأسطورية!!.

وبالطبع سلّحتني جدتي بإنذاراتها الحكيمة "امشي عديل يتحير عدوك فيك" وامشى جنب الحطية.. والحيطان لها اضنين ـ أذان ـ، وكان أصدقائي يقولون "البيوت أسرار" لكني رغم هذا أطلقت للساني العنان، ومارست هواية السير معتدل القامة وفي

---

(1) البامسيكا: قاطع طريق وأحد شجعان القبائل السودانية التاريخية.
(2) الهمباتة: مقابل صعاليك العرب عند السودانيين يأخذون من الغني ويعطون الفقير.

منتصف الطريق إذا لزم الأمر.. بل وأصررت على المشي فوق الخطوط وبعدها وقبلها غير آبه بعواقب. لا لشجاعة أو لتحدٍّ ما؛ لأنني لم أكن أعرف مسلكًا غير هذا..

كنت إنسانًا عاديًّا، حسب مقاييس ومواصفات جمهورية السودان الشاسعة الأطراف؛ أي خمسة أقدام وست بوصات، أسود الشعر عسلي العينين(1).

مسلم، نحيل، بلا علامات مميزة لا على الوجه أو في أي جزء آخر من جسدي.. أحب اللحوم، وما لذّ وطاب من الفول والطعمية، والملاحات (إدام سوداني)، وأضع أطنانًا من السكر في كوب الشاي اللذيذ الذي كنت أحتسيه في السوق من أيادي بائعات الشاي، ولا أبالي بأطنان الذباب والغبار التي تعبق الجو برائحة خانقة.

وفوق كل هذا كنت أعاني من حمى الملاريا بين الفينة والأخرى حتى أدمنت حبوب "الكلوروكوين".

---

(1) وصف شائع يكتب في جميع جوازات السفر السودانية.

أنـــا بالطـــبع أجـــيد ـــ كمعظم رجال بلادنا ـــ القَسَم بالحـــرام والطلاق ـــ رغم أنني لم أتزوج بعد ـــ فذلك قســـم يحســـم الأمر عندما ألحّ على أحدهم بأن يأكل أو يشـــرب، أو عندما يتحول الأمر في الدلالة إلى تشكيك في أمانتي أو خبرتي في عمليات البيع والشراء...

رغـــم فقري كنت أمتلك المنزل الذي أقيم فيه. وكان للمـــنزل ســـقف وجـــدران، ومـــنافع لا تـــزال صالحة للاستعمال البشرى.. ورثْتُه ـــ أي المنزل ـــ عن جدتي التـــي توفيت قبل عامين وهي في الثمانين من عمرها.. ومنذ أن بني المنزل في أواخر الأربعينيات لم يتغير فيه شيء...

أي إننـــي باختصار أسكن في منزل قد يحسدني عليه متشـــرد كـــان ينام في الشارع، لكنه كان متين الأساس رغـــم الشـــقوق الكثـــيرة التي تشوّه جدرانه، وكان في حوشـــه شـــجرة نيم تلقي بظلالـــها الوارفة على مدخل المـــنزل فتعطيه رونقًا وبعض أناقة. أما شجرة الليمون فكانت ملاذ السكارى في ليالي السمك واللحوم المشوية.

إذن، فقــد كانـــت حياتي محتملة لحد كبير في زمن الكوليرا والصمت المتربص واللحى التليفزيونية.

كنت أعمل في السوق، أمارس لعبة السمسرة. أشتري مـــن تاجـــر جملة بضمان اسمي وأبيع إلى آخر محققًا ربحـــي الضـــئيل مـــن الفرق. كان رزقي وفيرًا بعض الأيـــام، وصفرًا في كثير منها، ولكن أحمد الله على أن احتياجاتـــي كانت ــ وما زالت ــ قليلة: وجبتا الإفطار والغـــداء، وكان العشاء ــ ولا يزال ــ ترفًا لا قدرة لي علـــيه إلا إن أتـــى أحـــد زوار منزلي بطعام في ساعة مـــتأخرة مـــن الليل.. كنت أشتري بعض الملابس بين الفيـــنة والأخرى، أما الضروريات اليومية التي لا غنى عنها عدا الطعام فهي السجائر وما تيسر من المشروبات الحارقة المحلية الصنع..

كنـــت أحـــب سماع الأغاني، وأذهب إلى الأعراس لأشاهد حسان الحارة وهن يرقصن برقابهن تلك الرقصة الـــبلـــهاء "ربمـــا كحمامة أو نعامة أو طائر عنقاء، أو

حتى بومة" فكل تلك البلاهة كانت محتملة ويهون شأنها أمـــام مـــا كـــان يظهر من النحور والصدور والروائح المذهلة التي كانت تنبئ عن احتمالات شتى..

ولا أكذبكم خبرًا فقد كنتُ أقتنص الفرص للتنفيس عن رغباتـــي كلمـــا ســـنحت الفرصة، فحارتي وغيرها من حواري مدينة الخرطوم بحري وربما جميع مدن سوداننا المنكوب مليئة بالمطلقات والأرامل وزوجات المغتربين في بلاد النفط..

كنـــت أرتعـــش وأنـــا أقـــابل بعضهن في الطرقات المظلمـــة، وكـــان مـــيكروفون الحفلـــة يلعلع ويحجب أصواتنا، ورغم ذلك كنا نهمس ونحن نتسلل إلى منزلي. أمـــا عـــندما كـــنا نحكـــم مزلاج الباب فكنا نتحول إلى وحشين كاسرين، وجد كل منهما في الآخر فريسة. كان ذلك احتياجًا لتضاريس الجسد، ونهشًا وأخذًا بقوة وضمًّا وافـــتراقًا ثـــم الـــتحامًا بصور وأشكال لم توجد ولا في الأساطير..

ولـــم نكن نفترق إلا قبل نهاية الحفلة، نلـــهث يغطي جســـدينا العـــرَق وعصير الجنس ورائحة مميزة كانت تســـكرني، وتمنحنـــي إحساسًا برجولة بوهيمية لا حدود لقدراتها.

كنـــتُ موضـــع حظوة الموسرين من العزاب مثلي.. فلـــديّ منزلٌ خالٍ.. لا أهلَ ولا رقابة. ولم أكن حريصًا كثـــيرًا علـــى ســـمعتي أمام أحد.. فماذا أخذتُ من هذا المجـــتمع كي أمنحه الاحترام؟.. ولماذا "أعكر مزاجي" بسبب قِيَمِه البلـــهاء؟.

مـــع مرور الزمن تحول منزلي إلى محطة للعشاق.. وبالتالـــي دخلـــته كمالـــيات كثيرة لم أكن أحلم بها في الماضـــي؛ تلفـــزيون، ومراوح سقف من طراز توشيبا، وأثاث شبه جديد للغرفة التي أصبحتْ "محراب العشاق" كما سماها واحد من متقعري أولاد الذوات..

لم أكن ذا موقف ما من الدين.. بل كنت أحترم الدين

وأهـل الديـن، لكننـي كبقـية خلق الله في هذا القطر العريض، كنت أكره التعصب. وكنت أخشع برهة عند سـماع الأذان.. وأتـألم لسـماع مـا تنقلـه الصحف الصـفراء ــ التـي لم أكن أواظب على قراءتها ــ عن اضطهاد المسلمين في كشمير، أو الجهاد في أفغانستان.. فتلك أمور لم تكن تشغل بالي كثيرًا.. وقد أمارس بعض الشـعائر بتركـيز يقترب من الصوفية.. خاصة بعد أن "أُسرف بعض الشيء" في استنشاق الغبار الآدمي اللذيذ وينتابنـي الإحساس الفطري بالذنب والخوف من عذاب النار على ما أقترفه من "متعة"..

فأنا من مجتمع قال فيه الطيب صالح كما أعتقد "نحن قـوم نسـتغفر الله إذا ضـحكنا" كأنما الفرح خلق لناس غيرنا!!

وكغيري من السودانيين كنت أدلي بدلوي في السياسة المحلـية والدولـية من قبيل التسلية ليس إلا. وقد أردد بعـض المقـولات المحفوظة عن إسرائيل والعرب أو

عـــندما يذكر البعض عهد الديموقراطية والعسكرية في بلادنـــا. وقــد يذكـــر البعض أحيانًا جمال عبد الناصر وأتـــرحم علـــيه، مع "لعْن آخرين"، رغم أنني لا أعرف لمـــاذا أتـــرحم على هذا وألعن أولئك. فقط أريد مجاراة أصـــحاب مـــا بعد منتصف الليل، سمار حظر التجوال الـــذي فرضـــه الفاشست. فهؤلاء كانوا يجيدون الحديث عـــن السياسة أمام رفيقات الليل وهم نصف عرايا، بعد تعاطـــي العرقـــي أو الجـــن الحبشي وفي مرات نادرة ويســـكي أصفر فاقع لونه "يسر الناظرين" المتلمظين من أمثالي..

أما عندما يتطرق الأمر إلى الحرب الأهلية في جنوب السودان، فلم أكن أشارك كثيرًا، فالكيزان ــ تعبير يطلقه الســـودانيون علـــى الإخوان المسلمين ــ كانوا يجمعون الأطفـــال من الشوارع ويشحنونهم إلى الجنوب، وكنت أســـمع عـــن الحُور العين، وعرس الشهيد وانتصارات الجـــيش، وأهز كتفي بلا مبالاة.. فالجنوب بعيد للغاية،

وذوو الـــنفوذ من أصدقائي من رواد "محراب العشاق" كانوا يتكفلون بإبعاد شبح التجنيد الإجباري عني.

كـــان رأس الدولـــة يتســـاوى ــ في وجداني ــ مع عـــراب الدولـــة أو قائد التمرد أو أى ابن قحبة يمارس السياســـة فـــي هذا الوطن المترامي العريض الذي يبدو كـــثمرة مـــانجو متعفنة على الخارطة ــ كما قال بشير الأحنف أستاذ الجغرافيا والدين في المدرسة الابتدائية ــ فحياتـــي أشـــد قيمة من أن تعكرها أنباء عن القتلى أو الجرحى أو الشهداء.

كنـــت أحـــب ســـماع النكات الخارجة، وأهمس بها لأصـــدقائي وللجريـــئات مـــن رفيقات الليل.. وأطرب لســـماع الضـــحك الذي يسري في ليل الخرطوم بحري كالـــنار في الـــهشيم. وعندما يتيسر البانجو كنت أصول وأجـــول فـــي مـــيدان النكات التي تنحصر في الجانب الأسفل من الجسد..

ولـــم يكن يضايقني كثيرًا في الماضي مشهد الشباب الجديـــد مـــن أصـــحاب اللحـــى والشابات المتحجبات، ومفرداتهم الجديدة.. "بعْث الدين" أو "السلَف الصالح" أو "الـــثورة الإســـلامية". كنـــت أضحك فقط عندما أسمع تعبـــيرات كالرياضة الإسلامية والفن الإسلامي.. وكنت ورفـــاق اللـــيل نلقـــي بعض النكات عن تلك الشعارات الفخيمة، لكنها ــ أي النكات ــ كانت تتوقف عند حدود التجديف.

كنت أتعامل معهم باحترام يقترب من المودّة، بل كنت أحسّ بنوع من الاطمئنان الداخلي حين رؤيتهم.. كأنني كنت أتطلع إلى شهادتهم لي بالإيمان ونقاء السريرة يوم القيامة!!

ثم ذات يوم بعيد "العاصفة الصفراء" التي هبّت خلسة ــ رغـــم تعـــدد الشـــواهد والإنذارات التي استخفّ بها أسيادنا السابقون ــ وفي عز أيام "التمكين"؛ أي التمكين للدولـــة الإسلامية ــ وهو تبرير الإسلاميين للإجراءات

القمعـــية ــ مـــررتُ قرب منزل ذي طابقين أو لعلـــها ثلاثـــة.. من طوب رمادي، أنيق الشكل دون ما إسراف فـــي الـــتزويق رغـــم أن ألوانه مقبِضة بعض الشيء.. وكنـــت أعرف من الوصف أنه يسمى البيت المسكون. وهو يقع آخر مدينة أم درمان قرب الجسر المفضي إلى الخرطوم بحري.

قـــال لي صديقي ورفيقي في السوق ــ وشريكي في بعـــض عمليات السمسرة والسهرات نصف الحمراء ــ الذي يجلس جانبي قرب نافذة الحافلة العتيقة وهو يتطلع برهبة مضحكة..

هـــذا هـــو البيت المسكون الذي أنفق صاحبه أموالاً طائلـــة على بنائه ثم لم يسكن فيه إلا ليلة واحدة.. خرج بعدهـــا مجـــنوناً. كنـــت أضـــحك في سرّي من سذاجة الأمدرمانيين وتصديقهم لكل ما يقال، ما دام فيه حكايات عن جن وعفاريت وخوارق الطبيعة.

وكنت قد سمعتُ الأمدرمانيين يحكون القصص المهولة عن البيوت المسكونة بالجن.. فضحكت هازئًا في وجه صديقي الذي تحول فجأة من الخوف إلى الرعب الحقيقي والاشمئزاز، وقال لي في شبه همس إنه يعرف سر البيت المسكون، وهو سر لن يحكيه إلا على وجبة دسمة في منزلي ذي الحجرتين الضيقتين، يتبعها ما تيسر من العرقي الحارق..

قلت له في أريحية وخوف من المصاريف والمخاطر ـ خاصة في حالة العربدة التي تلفت أنظار شرطة الأخلاق ـ مرحبًا بك، لكن لن تذوق لقمة واحدة ما لم تقدم دليلاً على ما تقول. قال: إذن فلتأذن لي يومين أو ثلاثة حتى أعثر على "الدليل".. ثم نزل من الحافلة عندما وصلت إلى المحطة الوسطى بحري وهو يتلفت يمنة ويسرة كأنما يخشى أن يكون هناك من يراقبه.. كدت أقهقه سخرية من "الميلودراما"، لكن شيئًا ما ونظرة إلى الشاب المتجهم حليق الشعر كثيف اللحية إلى جانبي ألجما لساني.

غـــاب صاحبي أسبوعًا ثم طرق بابي ليلاً بعد "بداية حظـــر التجول" وكان بصحبته شاب زائغ النظرات تبدو علـــيه علامـــات الذهول أو العته.. كنت أشاهده بعض المـــرات في السوق وشاركته في "بيعة" أو اثنتين، فكلنا كـــنا من نفس الوسط والمهنة، ثم اختفى من السوق فترة طويلـــة. ولـــم أكن أذكر إلا أنه كان كثير الصمت وأن اسمه هو أيوب.

لا أدري لمـــاذا لكـــن تحرك شيء ما في قلبي يشبه الحنين والإشفاق عندما رأيته. فقد كان في وجهه ذهول لا يشبه الجنون. وكان شابًا وسيمًا رغم ملابسه المرتقة وألوانها غير المتناسقة. كان هناك حزن عميق في عينيه العسليتين لمس شغاف قلبي لا أدري لماذا.. لكني عانقته كمن يعانق أخًا طالت غيبته، وعانقني الشاب بريبة وهو ينظر إليّ بطرف عينه كأنما يخشى أن "أنشل" جيبه..

قلـــت لصـــاحبي الأمدرمانـــي مبتسمًا لن تذوق لقمة واحـــدة قـــبل أن تحكي قصة البيت المسكون، وبالأدلة

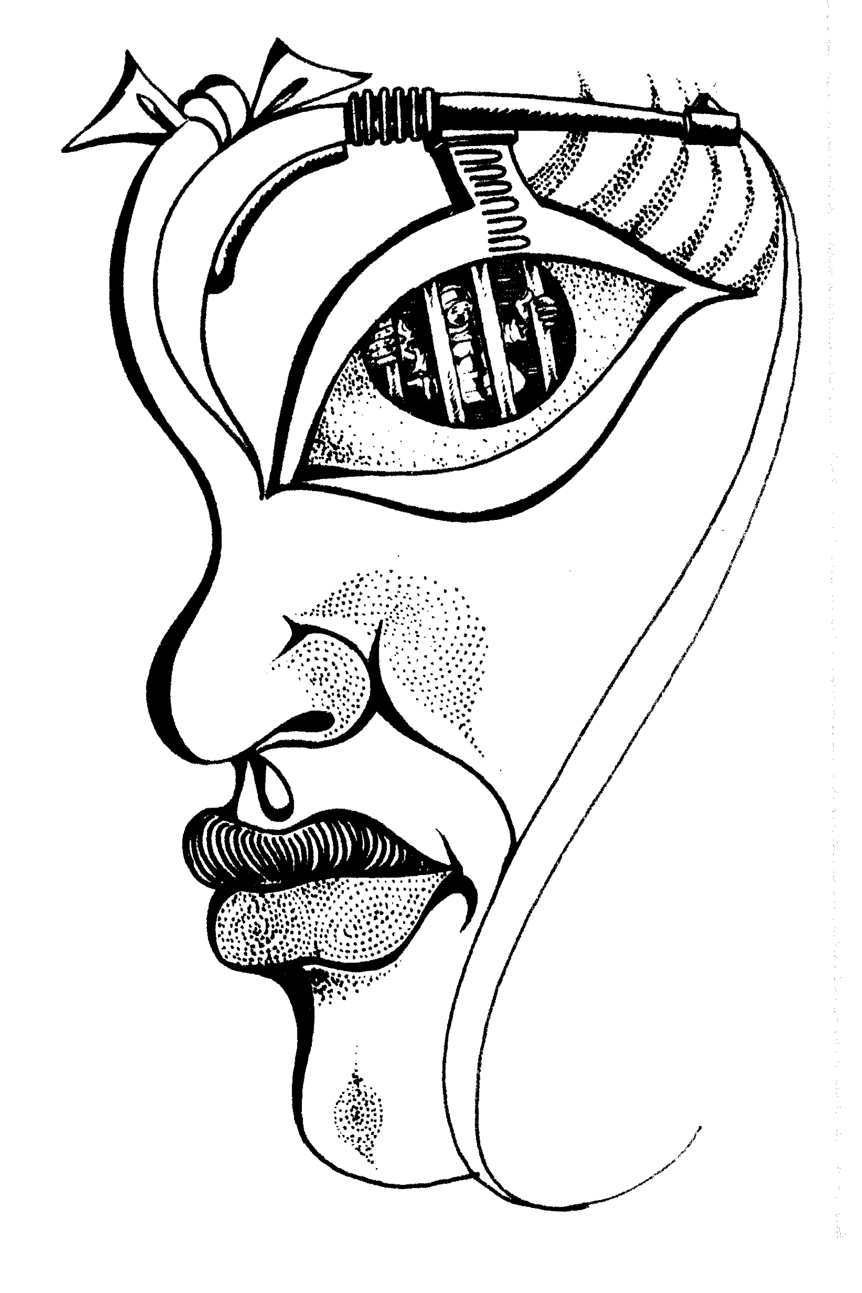
والبراهين. وهنا لاحظت الذهول على وجه رفيقه يتحول إلـى تلـهف ورغبة في الكلام.. لكن صاحبي أسكته بنظرة غريبة، فيها وعيد وتحذير لم أُعِرْها انتباهًا.

ثم قال لي إن رفيقي هذا ذهب ليقضي ليلة واحدة في البيـت المسـكون لكـنه لـم يخـرج إلا بعد شهر من الويـلات.. لـو وقعـتْ على جبل لـهدّته. وحكى لي صـاحبي قصـة أغـرب مـن الخـيال أقصها عليكم بحذافـيرها.. وكمـا سمعتها.. فقد كان صاحبي يحكى القصـة والشـاب الذي أتى بصحبته يرتعد ويتفاعل مع الأحداث كأنه لم يكن بطلـها.

كـان صـاحبي يحكي كأنه يحاضر في حضرة وفد سـياحي لا يعرف السودان ولا تاريخه. لم أقاطعه ولم أصحح أوهامه أو معتقداته بل تركته على سجيته، يحكي ويبكـي ويجـدف ويلعـن.. اختلط الماضي في قصته بالحاضـر والمسـتقبل، ولم أبالِ كثيرًا.. كانت القصة مـتداخلة، وكان صاحبي منفعلاً يحكي كأنه يردد هتافًا في مظاهرة ثائرة.

كان صوته يتهدج مرة ويتحول إلى رنين نحاسي مرة أخرى كأن الذي أمامي عدة أشخاص. كان الشاب الذي أتى معه صامتاً لم ينبس ببنت شفة. كانت دموعه تجري في صمت.

لذا قررت أن أقصّ عليكم ما حكاه صاحبي في شكل حكايات تستطيعون فهمها خيرًا مني.



الحكاية الأولى

المرأة الحديدية

أتى يلـــهث رغم اعتدال الجو ـــ وأومأ صاحبي إلى الشـــاب الـــذي أتى بصحبته ـــ كان عرقه يتصبب حتى التصـــقت أســـمالـــه المهلـــهلة بظهره.. لكنها المسافة الطويلة التي قطعها على قدميه المنهكتين.. أتى صاحبنا متســـربلاً بلـــيل أم درمـــان الحـــالك. يلـــهب ذراعيه العاريتيـــن الناموس المنتفخ من دماء الأمدرمانيين التي امتصها حتى الثمالة، وتدهم أنفه رائحة "الدعاش" النفاذة.

والدعـــاش لمـــن لا يعـــرفه "هو رائحة نفاذة عطرة تتصاعد إلى الجو بعد اختلاط المطر بالرمل الأمدرماني الأحمـــر".. فالوقت كان خريفاً سودانيًّا غزير الأمطار، وما أدراك ما الأمطار السودانية، أمطار مفاجئة غزيرة تنزل فجأة وبلا مقدمات ـــ ككرم السودانيين في الزمان الغابـــر ـــ تتبعها أوحال وخاصة في شوارع أم درمان

غير المعبدّة، المحفوفة بالخيران الضيقة، والتي تمتلئ وتفيض بمياه الأمطار، وما ترك فيها طوال العام من قمامة وأوساخ. ومن ثم تغزونا أسراب من بعوض الأنوفيليس الناقل لأنواع من الملاريا عز تصنيفها على أعتى الأدمغة الطبية.

وليل الخريف في سوداننا عادة ما يكون ظلامًا مطبقًا. فمنذ أن عرفنا الكهرباء، وتوربينات الطاقة الكهرومائية تتوقف في فصل الخريف عن الدوران من أثر الطمي الذي يحمله الفيضان من الهضبة الإثيوبية. وبالتالي ترشد الحكومة استهلاكنا من الكهرباء سواء شئنا أم أبينا. ساعة كهرباء وعشر ساعات ظلام... وهناك ظلام آخر يخيم على بلادنا الحبيبة منذ أكثر من عقد من الزمان، لا علاقة له بالمواسم، فهو ظلام متجهم حتى في عز شمسنا الحارقة. وليس ظلامًا من طوارئ الخماسين التي تأتي رياحها بتراب الصحراء الناعم، فتظلم الدنيا، وتتوقف الحياة في رهبة

من غضب الطبيعة. إنه ظلام لزج، كأنك تغطي أجساد الناس بطبقات من روث، ثم تجلدهم عقاباً على روائحهم الكريهة.

ولليل الخريف في السودان سحره الخاص، خاصة بعد توقف المطر: هواء عليل رطب، وصمت مطبق إلا من نقيق الضفادع في البرك الراكدة، ونباح الكلاب التي تتفتح قرائحها في الخريف، وهوائه المعبق بالرطوبة. وربما ماءت قطة بشراسة وهي تحاول أن تدرأ عن نفسها هجمة قط فحل في موسم الأمطار والخصوبة والفوضى اللذيذة.

في الأيام "الخوالي"؛ أي ما قبل الظلام الأصفر هذا، كان الساهرون يشعلون الفوانيس ويشوون ما لذّ وطاب من اللحوم ويحتسون المشاريب الحارقة. وقد يكتفي أكثرهم بالشاي والقهوة. ويفوح الليل بالطرب والهمس اللذيذ. وتسري في الظلام الحالك ضحكات من القلب.. كان هناك تناغم بين الإنسان والطبيعة.. وكان وكان..

ذلك قبل زمان الظلام الصفراوي، واللحى المعبقة برائحة الدم والبارود والدولارات.

كان الناس يحبون بلا حدود ويكرهون بلا حدود، يجدفون وقلوبهم عامرة بالإيمان، ويغيرون المنكر بألسنتهم وبأبوية خشنة بعض الشيء لكن فيها من الحنان والرغبة الصادقة في الإصلاح ما يغفر لها الصفعة التي كانت كافية لردع مَن وُجِد مخمورًا على قارعة الطريق، ومن عاكس حسناء ولو كانت من "الكاسيات العاريات".

ولربما زجر شخص واحد عصبة كاملة من الرجال والشباب ذوي القوة والبأس الشديد فارتدعوا عمّا كانوا يرتكبونه. فالكل كان مع الكل. وكان التماهي اللذيذ في منظومة واحدة، لها عيوبها الجديرة بالتغيير لا شك في ذلك، لكن كانت بين الناس حميمة لا يخطئها إلا مظلم القلب والنفس.

أما ليل هذه الأيام فهو مقبض للغاية، كنهارها. فبطون الناس ـــ ضحايا الخصخصة والمرابحات والمشاركات وكل ابتداعات المصارف المتأسلمة ـــ تلبكت من الطبق الواحد الذي يتناولونه صباح مساء.. الطرب أضحى مقننًا فإما مختارات ابن تيمية وعصارة الكتب الصفراء، أو الأغاني التي تمجّد الضراب والطعان والعنصرية والهمجية التي " تكتب اسم الله على الدولار"، كأنما الحب والابتسام رجس من عمل شعبنا الجاهلي، ولوثت أسماعنا أغان دونكيشوتية عن ضراب أمريكا وقتال روسيا ودكّ العروش، وضنت الوجوه بالابتسامات "فلا صوت يعلو فوق صوت الجهاد". الجسد عورة، والجنس رجس، والضحك بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار، ويا قلبي لا تحزن.

أصبح الحكم سوطًا وحجّابًا وجلادين بعضهم من أبناء جلدتنا، وبعضهم مستورد من أصقاع الأرض المختلفة. وانتشرت شرطة الأخلاق تشيع "الرعب" في

قلـــوب الخاطئين. وفي فهم أهل الحَلّ والعقد هذه الأيام كلنا خاطئ. وكلنا شريك في مؤامرات الاستكبار العالمي علـــى المشروع الحضاري الإسلامي،وكلنا يجب تأديبه "حدًّا" أو "تعزيزًا" أو "تنكيدًا"، والعقوبة الأخيرة هذه أبرز مـــا يمـــيز المشـــروع إياه. ودونكم تلفزيون جمهورية السودان الذي تحوّل إلى منبر للمشوهين نفسيًّا، محترفي هواية التحريم والتجريم والتكفير.

كان صاحبنا يتلمس طريقه وسط برك المياه التي تبدو فـــي الظـــلام عمـــيقة. كان يقذف الحجر بقوة في بركة ليتـــأكد من عمقها. ثم يتقدم وهو يلعن حظه العاثر. "الله يلعن أم درمان وأبو أم درمان وناس أم درمان" ثم يتعوذ مـــن الشيطان الرجيم إن سمع حركة وراءه. كان يخشى أن يلتفـــت فيحســـبه محـــدث الضجة خائفًا. كأنما الكل يتآمرون عليه.. الطبيعة والظلام والرعب الذي ينتظره.

كان يكره أم درمان، ولا يأتيها إلا مضطرًا في فرح أو تَـــرَح. ولا يـــتذكر إلا أنهـــا مديـــنة جافة، وأهلـــها

متـرابطون بصـورة تدعـو إلى الريبة في هذا الزمان الأغـبر. كـان يكره أهلها وهم يتفاخرون بأحيائهم التي سميت إما على أمراء الثورة المهدية، أو على واحدة من معاركهـا أو من مؤسساتها. حي الأمراء، الـهاشماب، أبـو روف، بيـت المال، الملازمين، العرضة، الثورة، المهدية..

رغـم ملامـح أهلـها التي تدلّ على تزاوج الزنوج بالعـرب، فمـا منهم إلا ويدعي أنه من أحفاد واحد من صـحابة النبـي، أو مـن أحفاده عليه الصلاة والسلام مباشرة. وكانوا يحتقرون ويسبّون مَنْ أتى من الخرطوم بحري.. "لقاط".. "حلب".. "أولاد ريف".. بقايا التركية.. إلى آخر ما في جعبتهم من أوصاف.

كـان يتملكهم إحساس بالتفوق على بقية خلق الله في كـل شيء، الرجولة والقوة والوطنية والذكاء، بل وحتى في شرب الخمر والدعارة واللواط.

ومـن أغرب ما يتميز به الأمدرمانيون، هو توهمهم

أن أم درمـــان التـــي يســـمونها "البقعة" هي أجمل بلاد العـــالم، وربمـــا في وجدان بعضهم أكثر قداسة من مكة والمديـــنة والقدس. حتى إن مسجد الإمام المهدي يسميه أهلـــهـــا ــ وخاصـــة مـــن أنصار المهدي ــ بالمسجد الـــرابع بعـــد مســـجد مكة ومسجد النبي ﷺ في المدينة والمسجد الأقصى.

ولا أدري من أين يأتي الجَمال لمدينة جافة قاحلة في معظم أنحائها؟ وتمتاز بكمية من الحفر، والأزقّة الضيقة كأنهـــا برلين بُعَيْد انتحار هتلر. أما المنازل فهي متنافرة الألوان، وشوارعها ضيقة ورائحتها كريهة.

فـــوق كل هذا تتوسط أم درمان وتتاخمها أقبح أسواق فـــي الـــتاريخ: سوق الشمس، سوق ليبيا، وسوق الناقة، وكلـــهـــا تتـــنافس في قذارتها وانعدام المرافق الصحية فيها، وافتقارها لأبسط مظاهر الحضارة.

أمـــا القداسة والسمو الروحي للمدينة القاحلة فأمره لا

يتضح إلا لأهلها فقط. ولعل الروحية تأتي من الكمّ الضخم من البيوت التي تصنع وتبيع المشروبات "الروحية الحارقة" التي صنعت خلسة، عدا ذلك فلم تكن هذه المدينة توحي لي بأي شيء مقدس.

تعثر صاحبنا فصاح مجدفًا، ثم قام وقد تلطخت ثيابه بالطين.. ثم لدغت ذراعه نملة بيضاء "تسمى ذات الريش" فأحس كأنما أبواب الجحيم قد فتحت عليه، لكنه كتم ألمه خوفًا من نائبات الليل في هذا الزمن القميء.

كان صاحبنا يتفادى ــ بمهارة ــ كتائب الشرطة الشعبية التي تبحث في الأزقة المظلمة عن مرتكبي جرائم "الشروع في الزنا"، أو من يفضّلون احتساء الخمر أمام أبواب منازلهم، وهو عمل يعد انتحاريًّا في ظل ظروفنا "الجهادية" الخاصة. فهذا زمان ربما يعتقل فيه شخص لأنه أطلق ضحكة عالية تشتم منها رائحة "المجون والعبث".

والشـــروع في الزنا تهمة مطاطة للغاية. فلو وجدوك تُقلّ في عربتك امرأة ولو كانت عجوزًا شمطاء من غير "محـــارمك" لاعتـــبروا هذا شروعًا في الزنا. ولو قبّلتَ حبيبتك لاعتبروا هذا شروعًا في الزنا. ولو كتبتَ شِعرًا اشـــتمّوا فـــيه رائحة "الأيروسية" فهذا أيضًا شروع في الزنا. ومن هنا مُنعتْ معظم أغاني التراث السوداني من البث في التلفزيون والإذاعة.

رأى صاحبنا عربة اختبأت بمهارة بين شجرتي "لبخ" ضـــخمتين فاختفت عن أنظار العسس. لكنه أحس بشيء غـــير عـــادي يحـــدث في المكان. فالعربة كانت تهتز بصـــورة مريـــبة. وسمع تنهدات وآهات وأحس بوجود حـــركة ما ألـــهبت خيالـــه. قاده فضولـــه ولتر العرقي الـــذي شربه على عجل قبل الخروج من منزلـــه الآمن إلى اتجاه السيارة.

كان يسمع تنهدات امرأة تتصنع النشوة وصوت رجل يلـــهـــث وهـــو سادر في حركة محمومة. وكان وراء

الســيارة مجموعة من الرجال يترقبون في صمت مشبع بالتوتر.. ويبدو أنهم كانوا ينتظرون أدوارهم في افتراس الغانية السيئة الحظ.

انحــنى صــاحبنا حــتى كاد رأسه يلامس الأرض، ومشــى علــى أمشــاط قدمــيه. تمعّن جيدًا في الوجوه المتلهفة.. كانوا يهمسون لصاحبهم يستعجلونه.. ثم سمع تعبيرًا أدهشه للغاية" شنو الحكاية يا شيخنا.. ما تستعجل شــوية". حسِب أنه لم يسمع جيدًا.. فأصغى مرة أخرى وإذا التعبــير يــتكرر مرة أخرى: يا شيخنا.. يا شيخنا؛ دوّت هــذه الكلمــة في أذنه كانفجار دانة مدفع. فكلمة شيخنا هذه خاصة بنوعية معينة من أشباه البشر يعرفها أهــل أم درمــان والسودان جيدًا، إنها العلامة التجارية لأصــحاب المشــروع الحضاري ولا يستخدمها غيرهم أحد.

فوجــئ صــاحبنا بأن "المرتكبين للفعل الفاضح" هم مجموعة من العسس الذين تبدو "سيماهم على وجوههم"

رهبان الليل فرسان النهار.. حراس الفضيلة، الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر، أهل الحلّ والعقد والمرابطات والمرابحات والمشاركات. فاستنتج أن المرأة غانية ألقاها حظها العاثر في براثنهم. وتخيل "شيوخنا" واحدًا تلو الآخر بين فخذيها فارتعدت فرائصه، وشكر الأقدار لأن ربه لم يخلقه غانية سودانية في هذا الزمان الرديء.

كاد أن ينفجر مقهقهًا أو غاضبًا بينما تفطّر إشفاقًا عليها من ذلك الاغتصاب الجماعي.. لكنه آثر السلامة فأمامه مهمة عويصة. ومع أن صاحبنا كان مخمورًا حقًّا، لكن كل الخمور في العالم ما كانت لتدفعه للتعرض لزبانية المشروع؛ فذلك انتحار، ولم يكن صاحبنا انتحاريًّا بأي حال من الأحوال.

مشى يترنح ولم يكن بينه وبين البيت المسكون إلا بضعة أمتار، كان يقدم رِجْلاً ويؤخر الثانية، كان الخوف يسيطر على كل جوارحه، لم يكن يدري ماذا

ينتظره في ذلك المنزل الأنيق المقابل لشاطئ النيل، والذي يقال إن أحدًا لم يدخله منذ أن تم بناؤه، وتضاربت الأساطير وما أبرع أهل أم درمان في نسجها.

فمن قائل إن المنزل بني على أساس مقبرة قديمة، وأن أرواح الموتى تنتفض غضبًا كل ليلة. ومن قائل إن صاحب المنزل داس غير متعمّد على رأس طفل من أطفال الجن فمات لساعته، فغضبت أمه، لهذا تسمع بعض الصرخات الأنثوية الحادة.

وبعض مطلقي الإشاعات يقولون إن ملك الجن بنفسه يأتي كل ليلة في سيارة سوداء ويدخل المنزل متخفيًا في صورة إنسان، لكنه طويل القامة عريض المنكبين تزكم رائحة عطره النفاذة الأنوف. وهو عطر من نوع خاص لا يستخدمه إلا خاصة الجن. لكنه لبني البشر يشبه رائحة "الديتول" الذي يستخدم في تطهير المستشفيات.

أصبح صاحبنا على بعد خطوات من البيت المسكون المحـــاط بأشـــجار لبخ ضخمة، وفجأة لمح شبحًا لرجل محـــدودب الظهـــر، يقبع في الظلام يتفرس في جدران البيت المسكون العالية.

حـــاول أن يـــتراجع لكنه تعثر في حجر وهنا انتفض الأحـــدب وسألـــه: "جاي من وين وماشي وين يا ولد"؟ وأتى الصوت مهتزًّا مرتعدًا.. لكن الصوت على ضعفه واهـــتزازه أرعبه، فارتعدت فرائصه وألجم لسانه، وكاد أن يتراجع هاربًا.

لكـــن كان الرهان يثقل على ضميره، وتذكر كرامته وضـــحكات الاستهزاء التي تنتظره لو أطاع حدسه وفرّ هاربـــاً، ثم إن هناك قَسَم عمّار ــ ذلك المنافـــق الثري المنعّم الذي اغترب في بلاد الخليج وأتى بمال لا تحرقه نـــار جهـــنم ــ بأن ينقده مائة دولار أمريكية خضراء "لونها يسرّ الناظرين" إن هو قضى ليلة كاملة في البيت المسكون. وما أدراك ما مائة دولار في زماننا هذا؟!

توقــف. قــرأ ما يتذكره من آيات قرآنية على عجل، وهو يلعن اليوم الذي تعلم فيه شرب "العرقي"، ثم أجاب بصوت حاول أن يكسبه بعض القوة: "دخلك شنو يا عم الحــاج، خليلك في حالك".. لكن خانته حبالـــه الصوتية وخـــرج صـــوته هامسًـــا، فتقدم الحارس نحوه بضع خطوات، وبدا في الظلام كأنه رجل عملاق ينذر شكلـــه بويـــلات لا قِـــبَل لـــه بها، ولولا احدوداب ظهره الذي ينبئ عن شيخوخته لولى صاحبنا الفرار.

اقــترب منه الأحدب.. وتأمل أسمال صاحبنا البالية، وأشاح بوجهه قليلاً عندما فاحت من ثنايا صاحبنا وفمه رائحـــة العرقي وبقايا الكمونية التي تناولـــها على عجل قـــبل خروجه في تلك الرحلة المشئومة، أمسك الحارس بكتفـــي صـــاحبنا بيدين من فولاذ وقال لـــه في صوت أنـــثوي مـــبحوح: لا تلـــقِ بنفسك إلى التهلكة. ألجمت المفاجـــأة لسان صاحبنا، فالأحدب كان في حقيقة الأمر امرأة لم تتعدّ الأربعين كما يبدو، وكان في ملامحها بقايا جمال غابر، لكن ما بال يديها كمقبضين من حديد؟!

سألها: ماذا تفعلين هنا؟ ولماذا تلبسين ملابس الرجال؟ وهنا ارتفع صوته. ولعله أحسّ باطمئنان شوفيني لأنها امرأة. قالت له بهمس حازم: اخفض صوتك يا حمار، فلو سمعوك لمزقوا جسدك إربًا إربًا.

ضحك بتوتر وسألها باستهانة وشبه عربدة: من هم؟ ولماذا يمزقون جسدي؟ ثم مَن أنتِ؟ ولماذا تلبسين ملابس الرجال؟ قالت له: أنا ضحية من ضحايا البيت المسكون. دخلتُه شابة كاملة الإنسانية عذراء، وخرجت منه أشلاء امرأة وبقايا حيوان.

ضحك صاحبنا بتوتر وقال لها: أغتصبك الجن؟!! ورفع عينًا وأنزل أخرى في إشارة بذيئة وتهكّم. رفعت يدها لتصفعه، لكنها لم تفعل بل رمته بنظرة حانقة، وقالت له: جِنّ؟! إنهم أقذر من إبليس، إنهم كلاب.. أخذوني من منزلي لأن أخي أعدم بتهمة التآمر لقلب نظام المشروع الحضاري ــ وكان كل سوداني قد سمع عن الضباط الذين دفنوا أحياء لمحاولتهم قلب نظام

المشـــروع الحضـــاري ـــ كـــانوا يحسبون أنني أحتفظ بوثـــائق ومعلومات عن رفاقه، أخذوني إلى الداخل، ولا أدري هل جاب أهلي أقسام الشرطة والمستشفيات أم لا؟ فربما حسبوني هربت مع صديق أخي الذي آواه والدي فـــي منزلنا بعد إعدام أخي. لا أدري لكن الزبانية حققوا معي لمدة لم أعرف طولها.. ساعات أو أيامًا طوالاً.. لا أدري، ثـــم هددونـــي بالاغتصاب، فكنت أقول وأنا والله صـــادقة: لا أعلم.. ضربوني حطموا عظامي ثم أطلقوا علـــيّ كلابهـــم البشرية.. اغتصبوني الواحد تلو الآخر وتناوبوا عليّ.

صـــمتت بـــرهة تلعق شفتيها الجافتين ثم قالت: لعلكَ ســـمعتَ ما يشيعه الناس عن المطهر الذي تفوح رائحته مـــن المنزل في أوقات معينة. ويقولون إنه عطر الجن. إنها يا لغبائهم رائحة مطهر فعلاً. فبعض مَن في الداخل تقيّحـــت جـــروحهم، ولم يكن هناك مَفرّ من غسْل البيت مـــرة كـــل يـــوم أو يومين بالديتول. اهرب بنفسك ولا

تـــتطفل. إن البيـــت مسكون نعم، لكن بكلاب المشروع الحضــــاري، ولديهم من وسائل التعذيب ما لا عين رأت ولا أذن سمعتْ. اهرب يا غبي، ولا تنبس شفتاك بكلمة، وإلا لاحقــوك وقتلوك وحوّلوا حياتك وحياة مَنْ تعرف إلى جحيم.

كـــان صاحبنا خائفًا، لكنه لم يكن جبانًا بأي حال من الأحوال. ثم كيف يصدق أن هذا المرأة اغتصبت داخل مـــنزل يقـــع وســـط حي سكني عامر تحيط به المنازل الفارهة من كل جانب. إنه حي صفوة أم درمان، وعلية القـــوم!! قال لـــها بنصف تأفف ونصف تردد: اغربي عنـــي، أنا لا أخاف، ثم تفرّس فيها مليًّا علّه يجد بعض ملامح أنثوية يشبع بها وجدانه المعذب.

صادقة هذه أم كاذبة؟ ثم لماذا تجلس هنا أمام المنزل الـــذي شهد مأساتها كما تدعي؟ وفجأة لاحت منه نظرة إلى شرفة المنزل التي اشتعلت بضوء بهر عينيه برهة.. أغمض عينيه، ثم عندما استرد بصره وجد نفسه محاطًا برجال طوال عريضي المناكب تبدو عليهم الشراسة.

لـــم يـــدْرِ من أين أتوا؟ ولم يَرَ المرأة التي حذرته؟. فجأة عصبوا عينيه، وأخذوا يركلونه ويضربونه بشراسة وقوة، أحسّ بوعيه يغيب عندما تلقى ضربة ما بين الرئة والحجاب الحاجز كتمت أنفاسه.

اســـتيقظ صـــاحبنا وكان لا يزال معصوب العينين، قـــيدت يـــداه وراء ظهره وكان القيد حديديًّا في رسغيه النحيليـــن. أصابه مع الرعب غضب وندم وتبكيت نفس صـــاح بـــأعلى صـــوته: أيـــن أنا؟ يا أولاد الأفاعي يا "خـــوَلات" وأخذ يهرطق ويجدف ويلعن ولا سامع ولا مجيـــب. كـــان غائب الوعي خائر القوى، واكتشف أنه أثـــناء غيبوبته تبول فكانت رائحة البول تملأ أنفه. أخذ يبكـــي بحرقة وغضب. أحس بإذلال وامتهان عجيبين؛ فهو لم يذق السجن قبل هذا، ولم يقيَّد في حياته، وهاهو ســـكران متـــبول مهان أسير في بيت لا يعرف مَن فيه. هـــل هم إنس أم جن أم من دهاقنة المشروع الحضاري كما قالت تلك المجنونة؟.

فجأة فُتح الباب، وكان لـــه صرير مرعب لكنه لم ير مَـــنْ دخل، فالعصابة كانت لا تزال على عينيه. أصيب برعب جنوني وسأل بصوت مرتجف: من أنت؟ ولماذا أنا هنا؟ لم يجبه أحد.

كـــان يـــرتجف بشـــدة، وأحس ببرودة بين أضلاعه ورغبة عارمة في التقيؤ. حاول أن يتقيأ ما في معدته فلم يتمكـــن. كـــان الصمت والألم ورائحة البول وذاك الذي يقـــف أمامـــه يمزقانه. حاول أن يزحف إلى الأمام علّه يصـــطدم بشيء ما يدلّـــه على كُنْه مَن دخل. ويبدو أن حركته المفاجئة أربكت مَن كان أمامه، لأنه قال بصوت أجـــشّ عمـــيق كأنه يخرج من قاع بئر: لا تتحرك. ثم أحـــس بيدين ضخمتين تثبتان كتفيه على الأرض اللزجة وأخرييـــن تمســـكان بقدميه، وأخريين تلفان حبلاً غليظًا حولهمـــا. ثم ركلتْه قدم ما في بطنه، وأخرى في رأسه، وأخـــرى في أضلاعه، وأخرى في فمه حتى غاب عن الوعي.

كان يختنق في زنزانته؛ فالحرارة ورائحة البول ثم ما خـــرج مـــن معدته كانت تحيل جو الغرفة إلى جحيم لا يطاق. غاب عن الوعي طويلاً ثم عندما أفاق وجد نفسه عاريًا وغارقًا في بركة من الدم والعرق والبول والبراز ومطهر "الديتول" وقد أزيلت العصابة عن عينيه والقيود عـــن يديه وقدميه. كان الضوء يدخل الزنزانة من نوافذ زجاجـــية عالية تركت مفتوحة. تلفت حولـــه طويلاً ثم انـــتفض، وجـــد علـــى مقـــربة منه امرأة تكومت على الأرض كأنمـــا كانت تلتف حول عريها. لم تتحرك ولم يمســـها. تفرس في وجهها مليًّا، إنها صاحبته التي تلبس ملابـــس الرجال التي حاولت أن تثنيه عن المضي قدمًا في مغامرته الحمقاء.

ناداهـــا بصـــوت مـــرتجف فلم تردّ ولم تتحرك. كاد الرعـــب يَذهب بما تبقى من قواه العقلية. حاول أن يقف على قَدميه فكاد أن يسقط على وجهه لولا أنه استند إلى الجـــدار اللزج. هزها فلم تتحرك، ثم هزها مرة أخرى

فانكفأت على جانبها، وهنا فقط أدرك أنها ربما تكون ميتة. هزها مرة أخرى ثم ركلها فلم تتحرك، إنها جثة هامدة، كانت الكدمات تغطي كل جزء من جسدها، وكان هناك دم ما زال يقطر من جرح بين فخذيها.

أخذ صاحبنا يصرخ ويصرخ ويصرخ، وجرى نحو باب الزنزانة يدق عليه بيديه اللتين اكتشف أنهما ملوثتان بالدم والبراز. لم يأتِ أحد، وكان يحس بجوع وعطش شديدين. وجد ماسورة مياه وقربها سطل فارغ. فتحها فنزل الماء بقوة لم يعهدها من قبل، (فعلى الرغم من أن عاصمة بلادنا تقع على النيل مباشرة، إلا أن ضغط المياه في معظم الأحيان كان ضعيفًا للغاية أو منعدمًا)، غسل جسده مرات عديدة حتى أحس ببعض الآدمية تعود إليه.

فجأة فتح الباب فاندفع لكي يغطي جسده. وجد يدًا طويلة طولاً غير آدمي تمتد برغيف خبز طازج، وطبق فول، انتظر حتى أغلق الباب ثم هرول إلى الطعام

فالتهمه رغم أن الفول كانت به كمية غير عادية من الملح.

جلس برهة ثم أحس بمغص يمزق بطنه وعطش لا مثيل له. فتح الماسورة فلم تنزل منها نقطة ماء. فشرب ما في السطل بل وأخذ يلعق جوانبه الصدئة. فجأة فتح الباب مرة أخرى وامتدت اليد الطويلة وأخذت الطبق.

تذكر الجثة فعاد إليه الرعب والهستيريا. هزها مليًّا. نعم ميتة يا صاحبي ميتة، وأخذ يلطم خديه. لبث برهة ثم صرخ وأخذ يقفز إلى النوافذ العالية يحاول الهرب أو الطيران. تذكر في تلك اللحظة أنه ليس عصفورًا. وقفز ثم قفز حتى أنهكه التعب.

هذه المرة استجاب له رجلان ملثمان فتح أحدهما الباب بينما أخذ الآخر يركله في قسوة. أخذا الجثة وتركاه يتلوى. كان يحس بالجنون، فماذا فعل في دنياه حتى يعاقب بهذه الصورة؟ لماذا يا رب؟!!

اضمحل الضوء في الغرفة، وعاد إليه الرعب. وهنا أخـــذ يسمع أصواتًا تماثل أصوات البعير المذبوح، كان يسمع عويلاً، واستعطافًا، وضحكات جنونية.. بعد برهة ســـاد الظلام. ولا يدري ماذا حلّ به، فقد أحس باستكانة عمـــيقة، واستســـلم إلـــى مصيره. لم يحس حتى عندما اشتعل مصباح كهربائي ضعيف في الغرفة/ الزنزانة.

فُـــتح الـــباب ورمـــت اليد الطويلة ملابسه التي كان يلبســـها الليلة الماضية. لبسها في صمت، ثم وقف كأنه كـــان يتوقع إشارة من السماء. كان الباب مفتوحًا، وكان المطـــر يـــنهمر بشدة في الخارج. خرج من الباب إلى ردهـــة معتمة، وتقدم ذاهلاً كأنما كان يمشي في حلم أو كـــابوس. اســـتوقفه رجـــل طويل القامة، وقف. عصب الرجل عينيه مرة أخرى ثم أخذه بيده.



أسلم صاحبنا قياده إلى سجانه الجديد. مشى به الرجل بضعة أمتار ثم طلب منه الوقوف. وقف صاحبنا يرتعد، وفجأة سمع جلبة وأصواتًا غير آدمية تخرج من مكان ما خلفـــه. لم يلتفت فقد تبلدت حواسه. فقَدَ علاقته بالزمن، أحـــس بأشباح تخرج من قاع هاوية مليئة بنيران حمراء تلـــهب وجهه وذراعيه وبطنه وأعضاءه التناسلية. سمع أصواتًا لا يدري من أين؟ أهي أصوات معركة يا ترى؟ سمع صوت حوافر خيل أتى صهيلـــها كأنه خوار ثور. ســـمع أصـــواتًا تســـتعطف وأصواتًا أخرى تضحك في هســـتيريا. ســـمع عويل نساء وبكاء أطفال.. أحس بأن الدنيا قبيحة جدًّا.

فجـــأة أحس بألم يمزق أحشاءه فقد تلقى ركلة جعلته يتكوم على الأرض. ركلة أخرى في مؤخرته، ثم أخرى إلـــى رأســـه. حـــاول أن يقاوم فلم يستطع. ثم فجأة أتى صوت عميق خافت كدبيب أفعى: انتهِكوه. رنّت الكلمة فـــي أذنيه فحاول أن يتمالك نفسه وأن ينهض كي يقاوم.

صــرخ: ألا تخشــون الله؟ يلعن دينكم يا كلاب يا أولاد القحــبة، أرجوكــم.. فقط قولوا ماذا تريدونني أن أفعل؟ وطفــق يجــدف ويصرخ.. تبرّز عنوة علّهم يشمئزون، لكن لم يصدّهم هذا عن المضيّ قُدمًا فيما يريدون.

لــم يســمع إلا ضــحكًا هســتيريًا، وميّز من ضمن الأصــوات الضاحكة صوت فحيح الأفعى. ثم فجأة تلقى ضربة من أداة ثقيلة على رأسه وأخرى أعلى بطنه.. لم يســتطع الحــركة. وأحس بألم حادّ. ثم أضافوا قيدًا إلى أغلالــه وأدخلوا خرطوم مياه في مؤخرته وفتحوا المياه بضغط كاد يمزق أحشاءه فإذا به ينحني رغم إرادته.

وهــنا مزق أحدهم الجزء الأسفل من ملابسه، وتمنى صاحبنا لو كان غاب عن الوجود.

لكنه كان مستيقظًا، متنبه الحواس كأن القدر أراد لــه أن يعيش التجربة كاملة، أن لا يتوهم بعد انتهاء العذاب أنه لم يحدث، أو أنه حدث بصورة جزئية. كان قدره أن يتذوق العذاب بلا رتوش أو مخففات.

أحـــس بشيء يمزق مؤخرته. لم يكن "عضوًا" بشريًّا بـــل كان أنبوبًا حديديًّا أحس به يخترقه. كان الألم فوق قدرتـــه على الصراخ أو الإحساس. كان يُحسّ بالمهانة فـــي كـــل ذرّة من كيانه. كان في تلك اللحظة لا شيء، ليته كان حجرًا.. (ولا يدري لماذا ولكنه تذكر أستاذه في ثانويـــة الخـــرطوم بحري وهو يتذمر من غباء التلاميذ ويصيح بصورة مسرحية، ليتني أصبحت حجرًا حتى لا أحس بغبائكم يا حمير!!) ليته كان حجرًا أو حتى طحلبًا مـــن طحالب البرك الراكدة التي تغمر شوارع عاصمتنا في فصل الخريف!

أحـــسَّ بدمائه تسيل وضحكات هستيرية حولـــه، كان هناك من يركلـــه ويضربه بقسوة لم يفهمها.

وفجأة توقف كل شيء. أُخرج الأنبوب من مؤخرته. توقفت الضحكات. توقف الركل وساد صمت كامل. كان الـــدم لا يـــزال يخـــرج بقوة من مؤخرته الممزقة. فكّ أحدهم قيده فسقط متكومًا على الأرض.

سمع صوتًا عميقًا يسألــه: ما اسمك؟

لم يُجِب.. ركَله أحدهم فهمس اسمه.

ثــم أتـــاه سؤال وركلة من شخص آخر: لماذا تريد تقويض الثورة؟ فصمت صاحبنا ولم ينبس ببنت شفة.

هنا ركله أحدهم في مؤخرته فكاد الألم يمزقه فصرخ قـــائلاً: والله لا علاقـــة لي بمن يريدون تقويض الثورة، وأنـــا والله العظـــيم مسلم عادي. لا أعرف السياسة ولم أكمل تعليمي ولا أفهم ما تقولون، ولا عن ماذا تتكلمون.

ضربه أحدهم بشيءٍ ما على رأسه، أحس بألم يتفجر في أم رأسه ثم ينتقل بسرعة البرق إلى باقي جسده.

إنهم يعرفون جيدًا أين يضربون. أولاد... ولم يستطع إكمالـــها فقد غاب عن الوعي.

عندما استيقظ صاحبنا وجد نفسه في حجرته/ زنزانته القديمة وقد أزيلت العصابة عن عينيه، ووجد إلى جانبه كومة من الأوراق ورجل ملثم يطالعه مِن علٍ.

وَقِّــعْ هنا.. لم يحاول حتى أن يسأل على ماذا يوقع. وقّــعَ بيدٍ مرتجفة وكل خلية في جسده تنضح ألمًا. فقدَّم لــــه الملــثم شربة ماء انتعش قليلاً. وما إن لبث برهة حتى عاد إليه الألم الذي يمزقه، وتملكه خجل وإحساس بالعـــار والمهانة. آدميته ورجولته انتهكتا ولم يفهم حتى لماذا.

ســأل هامسًــا: أرجوك أحضر لي طبيبًا. هزّ الملثم رأسه قائلاً: ما بكَ شيء، ستؤلمك مؤخرتك لأسبوع أو اثنين ثم تتماثل للشفاء. هل أنت طبيب؟ هز الملثم رأسه أي نعم. وأشاح بوجهه كأنه استحى ــ لعلــه تذكر قسم أبُقــراط ومواثيق الشرف ــ قال لـــه: أرجوك أعطني مسكنًا للألم. قال لــه الملثم في غلظة: لكنك تريد إطفاء نـــور الله. قـــال لـــه: والله لا علاقة لي بأي شيء، بل جئــتُ إلى هذا المنزل المشئوم في رهان لأنه مسكون، ولا شيء غير هذا. وتنهد بحرقة، ليتني سمعت كلامها. قـــال لـــــه الملثم: من؟ قال: المرأة العجوز الشابة التي

حذرتنـــي مـــن الدخول إلى هنا ولم أصدقها. هز الملثم رأسه قائلاً: المرأة الحديدية!!

قـــبل أن يخرج سألـــه صاحبنا: بالله عليك على ماذا وَقَّعــتُ؟ قال: وقّعتَ على أنك حاولت سرقة مخزن من مخـــازن الجـــيش وأثـــناء المطـــاردة سقطْتَ من أعلى المخزن على أنبوب معدني فاخترق مؤخرتك محدثًا فيها بعـــض التهـــتكات. وأنـــه لم يمسّكَ أحد من الجنود بل عـــالجوك وعاملوك حسب أصول القانون.. إلى آخر ما فـــي القائمة المعتادة، إنكَ محظوظ يا صديقي؛ فلو كتبنا أنك من أعداء الثورة، لكان مصيرك الإعدام.

ستقضـــي ثلاثة أسابيع في ضيافة الحكومة ثم تخرج بعـــد أن ينظر القاضي في الظروف المخففة، كونك بلا ســـوابق. نحـــن يا سيدي قوم ذوو رحمة، ولكننا عندما تقتضي "المصالح المرسلة" ذوو بأس شديد. نضرب بلا رحمة، وبلا هوادة. وقد نأخذ البريء بجريرة المسيء. مُثُلـــنا نستقيها من شخصيتين عظيمتين هما: الحَجّاج بن

يوسف الثقفي ﷺ، ونيكولو ميكيافيلي الذي وإن كان كافرًا إلا أن حكمته اخترقت الزمن، وبقيت نبراسًا لكل مَن يريد الحكم.

كان صاحبنا ملقى على الأرض ينزف ويندب حظه العاثر ويلعن الحجاج و"الخواجة" الثاني نيكو أو فيلي لم يتذكر.. وكاد يضحك لولا ألمه ومأساته، وأخذ يردد برتابة: نيكو و فلي.

أحضر له الملثم طعامًا لا بأس به، وأرغفة خبز ساخنة، وغيرّ ضماد جرحه الغائر المخجل.

وبعد يومين سمحوا له بلقاء بقية نزلاء البيت المسكون. رجال من جميع الأعمار والمهن. ونساء كذلك. والغريبة أنه على الرغم من الفرص المتاحة وجمال بعض النسوة فإنه لم يُحسّ بالرغبة أو الشبق. كان يُحسّ باحترام عجيب لهن. وأعجبته واحدة منهن عندما عرّفتْ نفسها كسجينة رأي.

كـــان همه الوحيد هو البقاء، وبأي صورة كانت. فقد تغلبت الغريزة الأولى على كل شيء. غريزة حب البقاء والمحافظة على جسده سليمًا، وما تبقى من عقلـــه.

وهـــو تحدٍّ اتضح لـــه أنه صعب التحقيق. فالعائدون من غرفة التعذيب التي يسميها الزبانية "المحراب" كانوا ينزفون ويئنون طوال الليل والنهار. وفي بعض الأحيان تصدر أصوات نحيب جماعية تقطع نياط القلب.


٤٣٥

الحكاية الثانية

كسر العين وأنين الشيخ سودان

دخـــل العنـــبر ذات يوم رجل مهيب. كان يبدو على ملامحه الوقار وعلو الشأن رغم أنه كان ينزف من كل مســـام جلـــده. ألقاه الزبانية بلا رحمة وبلا اعتبار لسنه وحالـــته الصحية على أرض العنبر، ولولا تلقفته الأيدي لارتطم رأسه بالبلاط الأسمنتي.

تـــناوب الجميع على رعايته وتضميد جراحه. لكن ما إن يـــبلغ درجـــة من الصحة حتى يقتحم الزبانية الغرفة ويأخذونـــه إلـــى جلسة من جلسات الاستنطاق والتحقيق الطويلـــة. كان عويلـــه يصل إلى جميع أرجاء المنزل. وتفـــوح فـــي أجواء المنزل رائحة اللحم المحروق. كان الزبانية يسمون التعذيب بالكهرباء "الباربيكيو الإسلامي". ولـــم يكـــن صاحبنا يدري ماهية الباربيكيو، وكان يظنه حديثًا نبويًّا تارة أو نوعًا من المعدات الغريبة.

ثم يأتون به مرة أخرى.

تكرر الأمر حتى قرر السجناء فيما بينهم أن يخدعوا الزبانـية فـي محاولـة لتجنيب الرجل عذابًا كان حتمًا سيفضي به إلى إحدى نهايتين، الموت أو الجنون. فكانوا يطيلون من فترة علاجه، بل ويحدثون جراحًا في أنفسهم ويلطخـون جانب فمه بدمائهم حتى يظن الزبانية أنه ما زال يـنزف، وكـان الشيخ يطالبهم بقتلـه فالموت كان أرحم مما هو فيه.

وفـي ساعة صحو التف حولـه بعضهم وسألوه عن قصته، نظر إليهم بعينين داميتين دامعتين ملأتهما الحيرة والألـم وغضـب مكـتوم، فزبانـية المشروع مرهفو الأحاسـيس، ولـو أبدى الشيخ العجوز غضبه لتكدرت نفوسهم، ولقتلوه عقابًا لـه على إدخالـه جرثومة الذنب في وجدانهم!!

قال لـهم الشيخ: والله حالي كحالكم. مواطن من هذا الـبلد كـل جريرتي أنني آويت أحد أصدقاء ابني، وهو شـهيد واحدة من حفلات الإعدام الإسلامية. ثم بعد فترة هرب مَن آويت، وهربت معه ابنتي التي كانت في حالة

مـــن الغضب والـــهياج بعد إعدام أخيها. ذات يوم أتوا إلي بجثتها وأمروني أن أدفنها بليل وأشيع أنها ماتت في حـــادث مـــروري. رفضت وأخذت أصرخ، حتى تحلّق حولـــنا الجـــيران ثم الحارة بأجمعها. هربوا.. الجبناء، لكنهم عادوا بعد فترة وأحضروني إلى هذا المكان. ومن يومهـــا وهـــم يسألونني عن أشياء لا أعرف كنهها ولا أدرك ما هي.. مؤامرات، اتصالات خارجية بالمعارضة وبقوى الاستكبار، وكلما أنكر يزداد عقابهم وتعذيبهم.

المـــرة الأخـــيرة قلت لـــهم سأوقع على أي اعتراف فقـــط اقتلوني. فصفعني أحدهم على وجهي.. وهنا تقطع صوته بالنحيب.

كـــان الشـــيخ يحســـب قيم هذا الزمان كما كانت في الماضي، أي حينما كانت الصفعة على الوجه تؤلم أكثر من طلقة الرصاص!!

تمـــالك نفســـه واستمر يحكي مأساته. صرخ فيه أحد الزبانية الملثمين: أنحن كاذبون؟ قل الحقيقة وإلا انتهكت رجولتك. قلت: ماذا تريدوني أن أقول؟ قال: أفصح عن

اتصـــالاتك الخارجية. قلت لـــه: والله يا بني أنا لا أملك حتى تليفونًا في المنزل، ولم أسافر خارج السودان، ولا علاقـــة لي بالسياسة، ولا أعرف عنها إلا ما كان ابني ورفاقـــه يتناقشون حولـــه ليل نهار. أنا رجل بلغت من الكـــبر عتـــيًّا ولا أمـــل لي سوى أن أذهب إلى الحجاز لـــزيارة بيت الله الحرام وقبر المصطفى ﷺ. فضربني أحدهـــم حـــتى غبـــتُ عـــن الوعي وصاح في وجهي: أتـــريدون إطفـــاء نور الله يا كفرة!! ذهلت، فأنا والله لم أكن إلا مصليًّا مزكيًّا طوال حياتي!

هددونـــي بإحضـــار بقية بناتي إلى التحقيق وانتهاك أعراضـــهن الواحـــدة تلو الأخرى. صرخت وقلت: مَن أنـــتم؟ أتســـمّون أنفســـكم مسلمين؟ وانطلق لساني يشتم ويهـــدد ويســـتعطف. لـــم يرحموا سني.. عذبوني حتى أعترف.. لكن بماذا؟ أنا لا أعرف السياسة، وبالكاد أقرأ الصـــحف اليومـــية، ولا أعرف حتى الكذب. وحتى إن أردت الكذب فلا أستطيع تنميق اعتراف وهمي.

قلـــت لـــــهم احضروا لي الاعتراف جاهزًا وسأوقع

علــى أي شيء فقط لا تتعرضوا لبناتي بأذى.. اقتلوني كمــا قتلــتم ولدي وبنتي، لكن لا تجهزوا على من تبقى أرجوكم. ركعت.. قبّلت أياديهم.. قبلت أرجلــهم، لكنهم لم يرحموني بل جردني أحدهم من ملابسي و...

وهنا اختلجت شفتاه ولم يستطع الإكمال. مسح بباطن يده دمعة أحرقت قلوب الجميع.

ســاد صــمت رهيب بعد أن أكمل الشيخ روايته، أو لعلـــه لــم يكملــها، فربما حدث لــه ما حدث لجميع الرجال في البيت المسكون. إنها عملية "كسر العين" التي كــان زبانــية المشروع الحضاري يتبارون في تنفيذها كأنها عملية لتحرير القدس. تعرض لــها جميع الرجال، ولــم تعترف أي من النساء أنه قد "كسرت أعينهن" لكن العين في العين والنظرة المنكسرة تغني عن ألف كلمة.

اســتمر الوجــوم برهة حسبناها دهرًا ثم فجأة اقتحم الزبانية الغرفة، وأخذوا الشيخ. لم يصرخ رغم اللكمات التي وجهوها إلى وجهه، والركل القاسي. لم يئن الشيخ ولــم نره بعدها. علمنا فيما بعد أنهم قرروا التخلص منه

فقد اعتبروه أكثرنا خطورة، نظرًا لشيخوخته وما علموه من سمعته الحسنة، وأنه قد يفصح عن أسرار البيت الحضاري المسكون!!

وبالطبع هذا فيه خطر على المشروع الحضاري، فالناس أميل إلى تصديق من هم على شاكلته. وكانت زيارة مفوض الأمم المتحدة قد أوشكت، وكان لا بد من إخفاء وجود البيت المسكون، وما يشابهه من البيوت الأخرى التي اكتظت بها جنبات عاصمتنا الكئيبة.

بكاه الجميع طويلاً وربما كانوا يبكون أنفسهم، أو يخشون على آبائهم أو أمهاتهم أو أخواتهم أو إخوانهم أو أطفالهم مصيرًا كمصير الشيخ. وكانوا في غمرة الرهبة قد نسوا أن يسألوه عن اسمه. لام صاحبنا نفسه طويلاً فأنين الشيخ كان ما زال يؤرق منامه، وكان يبكي وقرر أن يسميه بالشيخ سودان.

مدد يا شيخ سودان مدد..!

كان لاغتيال الشيخ وانتهاكه وغيابه عن العنبر فِعْل

الســحر فــي نفــوس المساجين المعذَّبة الذليلة. سادهم غضــب تفــاقم يومًا بعد يوم. وكان السجانون يحسّون بذلــك، فتركوهم بدون تحقيق أو تعذيب أو "كسر عين" يوميــن كاملين، ثم قرروا استفزازهم من جديد لكن بعد فوات الأوان.. فقد قرروا التحدي ومهما كان الثمن.

تخندقوا في العنبر، سدوا بأجسادهم مدخلــه، هددوهم بــإطلاق الرصاص فلم يتزحزحوا، بل صرخوا مرحبًا بــالموت. ســادهم شعور أقرب إلى الــهستيريا.. كانوا يضــحكون بصــوت مرتفع، ويغنون "أصبح الصبح فلا الســجنُ ولا السجّان باقٍ" وغنت بعض رفيقاتهم بصوت حنون بعض الأغاني الحماسية، رغم أنهم لم يكونوا في حاجة إلى من يثير حماسهم.

بدأ الاضطراب يسود السجانين.. كان صاحبنا ورفاقه ورفيقاته يسمعون أصواتهم وهم يتجادلون. صاح أحدهم فــي الآخــر مناديًا إياه بما يبدو أنه اسمه الحقيقي. ساد صــمت ثم سمعت من خارج الزنزانة أصوات صفعات وركلات وتأوهات، إذن سادت الفتنة السجانين.

بركاتك يا شيخ سودان..!

فجــأة ســاد صــمت عمــيق وارتفع صوت بالتحية العســكرية، اشتم المساجين رائحة المطهر وأحسوا حتى وهم داخل العنبر ببعض الرهبة لكن ما عاد لكل أسلحة الدنيا أو عفاريتها أو جِنّها أو إنسها أثر فيهم.

طرقــتْ يد ما على الباب وبصوت عميق أتى فحيح الــرجل الــذي كانوا قد أطلقوا عليه فيما بينهم الجنرال ديــتول. سادهم بعض الخوف وهلة ثم تذكروا أنه ليس هناك ما يخشونه أو ما يفقدونه.

افتحوا الباب.. قالــها صاحب الصوت المرعب.

رد صاحبنا ببذاءة:

افتح ... أمك.

ضــحك الجميع بصخب وعصبية. صمت الرجل ثم تحول عن الباب وصرخ في زبانيته: حطِّموا الباب ولو بقذيفة.

وهنا خاف بعضهم وتراجع البعض إلا أن النساء كنّ أشد شجاعة. وصاحت إحداهن لن نتزحزح شبرًا. وأخذ بعضهم يغنون أغنية محمد وردي مرة أخرى وتصايحوا يغنون ويهتفون:

اسمك الظافر ينمو في ضمير الشعب في كل مكان.

تسلحنا بأكتوبر لم نبرح شبرًا.

سندقّ الصخر.

باسمك الأخضر يا أكتوبر الأرض تغني.

الحقول اشتعلت قمحًا ووعدًا وتمنٍّ.

والكنوز انفتحت في باطن الأرض تنادي.

باسمك الشعب انتصر.

حائط السجن انكسر.

وتصايح البعض في نزق: "إلى الثكنات يا خولات".. لن تحكمنا حكومة الجبهة.

وفجـــأة انتـــبه الزبانية إلى أنهم أصبحوا سجناء في ســـجنهم. فأصـــوات السجناء كانت عالية، والحي كان سكنيًّا مأهولاً.

لم يَدْرِ صاحبنا ولا رفاقه ولا رفيقاته ماذا حدث، لكن الزبانـــية أطلقوا وبدون إنذار قنبلة مسيلة للدموع، وزكم الدخـــان أنوفهم وأخذوا يسعلون بشدة وسالت دموعهم، أغمي على البعض، لكنهم لا يدرون من أين أتتهم القوة فقـــد ظلـــوا يحجزون الباب بكل قوتهم. ولم يتزحزحوا شـــبرًا. كانوا يتصايحون في هستيريا وجنون، وقد امتلأ جو الغرفة بالدخان والغاز، وأصبحت الرؤية صفرًا.

فجـــأة انتـــبه صـــاحبنا إلـــى جانبه فلم يجد إلا تلك المتحمســـة، وقد ألقت بجسدها على الباب فأحس بقوة لم يـــدر من أين واتته، وضغط بجسده على الباب وضغط حتى خارت قواه.

عـــندما استيقظ وجد نفسه يعوم في بركة من دمه ودم رفيقاته ورفاقه. لم يكن يعرف إن كان الجميع موتى أو أحياء. لكن كانت عيناه مفتوحتين. كان يرى في الظلام،

كـــأن الألـــم في جسد آخر، رأى السجانين الزبانية وهم يتشـــاورون في كيفية تفسير ما حدث لرؤسائهم. وكيف أضـــاعوا علـــى دولـــة المشـــروع الحضاري مصادر المعلومات الثمينة هذه. لم ينطق أحدهم بكلمة واحدة تنم عـــن أســـف، أو ندم، أو إحساس بالذنب. اقترح أحدهم وكـــان نحـــيل الوجنتين مدبب الوجه فبانت لحيته كأنها عظـــم مخروطـــي ملأه الذباب، اقترح أن يطلقوا على الجميع الرصاص من كاتمات الصوت، ثم تهرب جثثهم آخر الليل بعد حظر التجوال.

هـــز بعضهم الرأس قائلين: حتى لو كان فيهم أحياء فـــإن كاتمـــات الصـــوت غير متوفرة، واقترحوا خنقنا وضربنا بالخناجر، ثم ذبحنا زيادة في التأكيد. ثم ضحك بغـــل منهم وقال "أحسنوا الذبح". قال أحدهم: إن قتلـــهم جمـــيعًا ســـيكون خســـارة كبيرة خاصة وأن البلد مليئة بالمؤامـــرات، وأنـــه لا بـــد من استنطاق الأحياء منهم، وخاصة أنه لو علم "الشيوخ" لدخلنا في مأزق لا مخرج منه. هزّوا رؤوسهم بالموافقة، ثم نادوا الطبيب.

كان واعيًا كالميت في لحظة الحساب. لا جسد هناك يحـــس به ولا ألم، كان هناك في حالة أقرب إلى الروح المطلقـــة. وصدق أينشتاين في معادلته عن تحول المادة إلى طاقة عندما تصل إلى سرعة الضوء.

كانـــت روحـــه تسابق الضوء، تلاشى الزمن، تحلل، تلاشـــى، تبخر. المكان نفسه كان مسطحًا لا أبعاد لـــه. أصيب بحالة من اللامبالاة. كان كنقطة في لوحة قبيحة قرر من رسمها أن يرميها في مقلب قمامة صدئ.

كان لا شيء. وفي لا شيئيته تلك كان يحس باطمئنان لا مثيل لـــه. كانت إرادته فوق بطش الزبانية، كان في صمته ذاك عملاقًا.

هـــزه الطبيب. لم يتحرك. كاد الطبيب أن يتقيأ عندما رأى وجه الرفيق المحطم ورأس رفيق آخر مشقوقًا بما يـــبدو أنـــه آلة حادة. ثم تقيأ فعلاً عندما رأى جثث من قـــتلوا أو ذبحوا من الأذن إلى الأذن، وبكى عندما رأى الرفيقات بثيابهن الممزقة وهن عاريات إلا مما تبقى من أسمالهن البالية.

ثـــار الطبيب وطفق يسب ويلعن بل وسمعه صاحبنا يجـــدف. ويـــبدو أن ســـبه ولعنه وتجديفه منح بعضهم طمأنيـــنة من نوع ما، فالطبيب كان إنساناً مثلـــهم على الأقل.

رفـــض الطبيـــب الـــذي يـــبدو أنه لم يكن من أهل المشـــروع الحضاري "قلبًا وقالبًا" أن يعالج الجرحى إلا فـــي مستشفى، وسمعت صفعة رنت في أرجاء الزنزانة عندما ذكر الطبيب شيئًا عن محضر شرطة.

يـــبدو أن الطبيـــب أدرك حينذاك أن من أمامه فوق القـــانون وأنه من الأفضل لـــه أن يذعن أو يهادن لإنقاذ مـــا يمكن إنقاذه. فلجأ إلى الاستعطاف والاعتذار. وقال لذلـــك الـــذي كان حريصًا على استنطاق بقية الجرحى، إنهم سيموتون لو تُركوا ينزفون.

تـــردد الزبانية طويلاً ثم قالوا لـــه: إذن نأخذهم إلى مستشـــفى خـــاص بعيد عن العين. فقرروا نقلـــهم إلى مستشفى خارج المدينة. ووعدوا بإحضار جميع ما يلزم لإبقـــاء الجرحى على قيد الحياة. وتشجع الطبيب وأخذ

يضمد جراح بعضهم ويخفف من آلام الآخرين. وطلب الطبيب قدرًا من المهدئات كان يكفي لتنويم قطيع من الثيران الجامحة.

ومع خلو الشوارع من المارة بعد حظر التجول، نقلوهم إلى سيارة مظللة النوافذ. وكان الطبيب قد تمكن في الوقت الذي انقضى منذ دخوله العنبر من الإبقاء على صاحبنا وصحبه أحياءً. وركب معهم السيارة المظللة وكان يهمس في آذانهم بكلمات التشجيع.

عندما لفحت وجهه أنفاس الليل في ذلك الخريف الأمدرماني الرطب أحس بروحه تُرَدّ إليه. أحس أنه يحب الحياة وأنه يريد أن يصمد وأن ينتقم لمن قتلوا إنسانيته. مَن اغتالوا رفاقه ورفيقاته.

وصلوا إلى المستشفى الذي كان عبارة عن بيت ضخم لم يكتمل بناؤه بعد.

ويبدو أن اتصالات قد أجريت، فقد تحول البيت إلى مستشفى ميداني فيه معظم أدوات الإسعاف الضرورية.

لكــن كان معظم العلاج بعد فوات الأوان. فقد توفى تحــت المبضـــع المرهب من تبقى من المساجين، وكان صـــاحبنا يراقـــب في دهشة وغضب ووجوم. ولعلـــه لـــــهذا صمد حتى عالجه الطبيب وضمد جراحه ونقل إلى عروقه كيس دم بعد كيس دم، حتى عاد الاستقرار إلى نبضات قلبه.

نقـــل صاحبنا بعد ذلك إلى غرفة أخرى واسعة جيدة الـــتهوية. ولازمـــه الطبيب طوال مدة بقائه في الغرفة. وكـــان الزبانية يتناوبون الحراسة، ويطلون ما بين الفينة والأخرى على الغرفة للتأكد من أن الشاهد الوحيد على جرائمهم قد بقي على قيد الحياة.

عـــندما بـــدأ صاحبنا يتأوه أمسك الطبيب بيده ورماه بـــنظرة حـــذرة. كـــان مشدوهًا لأن صاحبنا كان متنبه الحـــواس كأنه استيقظ من سبات عميق فقط. همس في أذنيه ببضع كلمات، ثم نادى الزبانية.

أعلـــن الطبيـــب أن صاحبنا قد تجاوز مرحلة الموت المؤكـــد لكـــن تـــبقى حالته خطيرة للغاية. لكنه أضاف

محذرًا بأنه لن يضمن سلامة قواه العقلية بعد تلك العملية الطويلـــة، وأن الضـــربات المباشـــرة على الجمجمة قد حولت صاحبنا إلى ما يشبه المعتوه.

رضـــخ الزبانـــية للأمـــر الواقع أو هكذا ادّعَوا. فقد أخضعوا صاحبنا إلى اختبارات واختبارات للتأكد من أنه لـــم يعـــد يشكل خطرًا عليهم. ولوا أنهم حزنوا وتأسفوا على وفاة هذا العدد الـــهائل من "مصادر المعلومات".

وهـــنا صـــمت صاحبي عن الحديث. وكنت في هذه الأثناء أصب كؤوس العرقي، ولم أنتبه إلى أنني لم أقدم إلـــى ضـــيفي شيئًا.. كنت أستمع بكل حواسي، وأنظر بطـــرف عينـــي إلـــى الشاب صاحب القصة، وصديقي راويهـــا كأنني أنظر إلى اثنين من عفاريت الجن، كان الرعـــب وعدم التصديق والخوف والقرف ينضحان من كـــل خلية في جسدي. أيحدث هذا كلـــه في أم درمان؟ بـــل أيحـــدث هـــذا في الكرة الأرضية؟ أيحدث كل هذا لأيـــوب صابر؟ وكم من أيوب غيره ما زال في واحدة مـــن البيوت المسكونة بالجن والأشباح الحضارية منها وغير الحضارية؟!

ارتفع صوت التلفزيون في بيت جيراني بنشيد من أناشيد المشروع الحضاري. ولم أتمالك أعصابي، وصرخت بأعلى صوتي المخمور الذي تهدج حزنًا وغضبًا: "قفلوا الميتين ده إلعن...".

ولم أكمل فقد كان شباب شرطة الأخلاق يجوبون الشوارع، وكان الوقت خريفًا وكان التمكين في عز سطوته.

آثرتُ السلامة، وقمتُ أقدم طعام العشاء إلى ضيفي بينما تملكني إحساس عميق بالخجل.

السير في منتصف الظل

المواطن السوداني أيوب والناطور ذو السحنة السمجة

كـــان منتصـــف الـــنهار قد أزف. وكان التناغم بين الشمس وخلايا جسدي قد انتهى إلى معركة ضارية بين البلازما التي ترفض ما هو فوق الخمسين درجة مئوية، وبيـــن الشمس الاستوائية التي تأبى إلا أن تمنحك المزيد من لهيبها. ووقفت الأشجار احترامًا لقانون الجاذبية ليس إلا. ولـــولاه لاختبأت في باطن الأرض، أو لطارت عن جذورهـــا بحثًا عن نسمة هواء عليلة في أعالي السماء. الأرض حـــبلى بالأشـــعة بعـــد ذلك الانفجار المرعب. والشمس الخماسينية تأبى إلا أن تزيد من معاناة الجميع.

أنـــا أتنفس تحت الرماد، حريق في منظومة ضاعت قـــبل نهايـــة الـــتاريخ في جناح بعوضه. تمتص رحيق الحـــياة من أطفال المحرقة العربية والإفريقية الكبرى. كانت هناك بعض الأشباح التي ما زالت تحاول التجسد

في عالم كثيف المادة، لا يقبل الضعفاء، ولا يقبل اقتسام حتى فتات موائده بدون ثمن.

ظاهر النص مآلنا أما باطنه ففي خبر كان.

كـــان ابـــن حزم ظاهريًّا وكذلك الدجال الذي باعني حجابـــًا ضـــد الرصاص قبل معركتي الكبرى، والتي اســـتنتجت بعدها أن علم الباطن أمر صعب المنال ولا ينالـــه إلا أولو العلم والمعرفة والاجتهاد الشديد. أنا أنين الجرحى في كرري وسيناء وتل الزعتر وصبرا وشاتلا وجـــنوب الســـودان وشرقه وغربه، أنا الذي أشع براءة ويورانيوم في أشلاء العراق الممزق ثم أشهد على القتل الجماعـــي فـــي بغداد، أنا التردد والصخب العربي منذ عصر التنوير.

أنـــا أحلـــم إذن أنا أبله. كانت تلك كلمات شاعر فقد الأمـــل في كل ما هو جميل في الحياة، كانت تلك لحظة صـــدق حسب أيوب أنها ستبقى أمد الدهر لكنها سرعان مـــا توارت خلف كثبان الصمت وأدب الرموز وحرب

النصـــوص والعقـــل. كان أيوب يرفض اللامبالاة التي تمـــيز الجـــياع والمعدمين في بلد المشروع الحضاري. كـــان يبصـــق دمًـــا وقرفًا وأشياء أخرى أجبره شيوخ المشروع الحضاري على تجرعها في فمه. كان يبصق القبح الذي تذوقه منذ أن رأى ذلك الشيخ الدميم ذا الوجه المدبب واللحية النشاز، منذ أن رآه عاريًا يهز جسده في شـــبق مقزز. كان الشيخ يلـــهث، وخلفه معدات الكذب الجماعي. كان الشيخ منقسمًا ما بين الإغراق في اللواط وافـــتعال الصلاة واغتصاب الأطفال والرجال شيوخًا أو شـــبابًا. كان ذلك القميء يمتلك حسابًا لا ربويًا، ومنزلاً في أرقى أحياء العاصمة الكئيبة، وفوق ذلك كلـــه كانت لديـــه مفاتـــيح الجنة، وصكوك الغفران، وأرقام هواتف الحور العين!

كلمة منه كانت تعني الجنة، وأخرى تعنى الغوص في أعمـــق حفرة من حفر جحيم المشروع الحضاري. كان أيوب يبصق ويتقيأ ويسيل الدم من جميع مسام وفتحات

جســده. كــان يذكــر قصــيدة قديمة قرأها في النسخة المهلهلــة مــن ديوان نزار قباني التي يمتلكها في داره العتيقة.

مَن قتل الإمام؟

عساكر بكامل السلاح يدخلون.

مَن قتل الإمام؟

عساكر بكامل السلاح يخرجون.

يذكرها ويبكي على حالــه وضعفه وعجزه ليس عن قــتل الإمام فحسب، بل حتى عن زجره أو إزاحة جسده المقــزز الــذي التصق بجسده. كان يختنق تحت رائحة العرق المختلط بعطر زيتي ثقيل. تذكّر حانة دخلــها في بــراغ ثم هرب منها لأنه اكتشف أنها مرتع للشواذ. آه لماذا هرب من شواذ براغ، فهم على الأقل لا يفرضون أنفسهم عليه بقوة القانون، ولا يدّعون لأنفسهم مشروعًا حضــاريًّا أو غــير حضــاري. آه يــا عاصمة الرتابة والقباب التي بنيت فوق قبور أنصاف الأولياء وأنصاف

الصالحين، يا مرتع الذباب والجوع رغم تخمة البعض، والعفة المزيفة. آه يا عاصمة الأعاصير والسلّ والعطش، رغم أنها بنيت حول أطول أنهار العالم. آه يا عاصمة الأكاذيب والقسم بالطلاق، والختان الفرعوني، والرقّ الخفي، رغم كل أناشيد الحرية!!.

أيوب يسأل في بلاهة:

سمائي دون سمائكم؟ أم ترى شمسي تُشرق من الغرب؟ دمي أحمر ودمكم أزرق؟ فَنائي حلال بإشارة من يد كبيركم، أم أنا إنسان كامل الأهلية والحقوق؟

لكنني أعلم جيدًا أن سنابل قمحي خواء وأنا أردد أناشيد الخوار بلا كلل. أصرخ في الجراثيم الملتصقة في أهداب عيني: التهميها، لا تبقي خلية. كلي بؤبؤ العين لا أريد رؤية عاري. أرفض المشي في أعقاب الخدر بعد اليوم. لا أقبل أن أشاهد المسطحين وهم يرقصون على أشلاء ثقافتنا، ويتكسبون أيضًا. فأنا ضعيف أرفض وجودهم، ولكن يمكنني أن أغضّ البصر عنهم بالكامل. أضعف الإيمان هو الخيار الوحيد.

قرار سابق لأوانه:

قررت بصورة لا رجعة فيها أن أنضم إلى ظلي. أن أعبر الحياة خيالاً.. لا أمسّ أحدًا.. لا يُحسّ بي أحد. قد تشـــاهدني عـــند طلوع الشمس من منبعها في الشرق ثم أختفـــي عـــند الظهيرة، أو ربما أتحول إلى نقطة، تكبر شـــيئًا فشيئًا.. أتداعى عند خفوت الضوء ثم أتلاشى مع الغـــروب. لـــن أمارس اللعبة المملة.. لن أطلق العنان لإفرازاتـــي. أنـــا جســـد ظلٌ، بلا هرمونات، بلا خلايا تتجدد، حي كميت أو ميت يتحرك.

أيوب يحاور الناطور:

طلبتُ من شرطة الأخلاق في المدينة الفاضلة ــ كما كـــانوا يســـمون عاصـــمة المشروع الحضاري ــ نص القوانيـــن التي يجب أن أراعيها. فقال لي أحد النواطير الذي بدت على وجهه علامات "الوقار": فقط كن وقورًا، وتـــرجمَها بـــأن قـــبض على لحيته الكثّة.. لا تقهقه، لا تُجهـــش بالبكاء، لا تُظهر فرحك أو حزنك، وإياك إياك

أن تعشـــق أو أن تستنشـــق الغـــبار الآدمي.. قلّلْ قدر الإمكـــان من اطلاعك على الكتب سماوية كانت أم غير ســـماوية، ودعْ عـــنك الـــنظريات والفلسفة وما يسميه الملحـــدون بالفكر الحر، فنحن نفكر بدلاً عنك، وأصدقك القول فإنه لا داعي للتفكير وقد فكّر السلف الصالح بدلاً عـــنا. لا تجأر بالشكوى إن شاع الغلاء أو قُطعت عنك الكهرباء أو المياه، أو الدواء.. لا تتذمر إن أصبح التعليم حكـــرًا على أبناء طبقة معينة، فالأرزاق بيد الله يعطيها مـــن يشـــاء.. لا تَرْمنا بالكذب إن تغير خطابنا السياسي بين أسبوع وآخر، أو فعلنا ما لم نقل أو قلنا ما لم نفعل. فهذا كله من إجراءات التمكين. الأعداء كثيرون، فالشكّ واجب في كل شخص مهما كان قريبًا منك، ولو كان من أســـرتك. لا يهمنا في شيء إن كنت شريرًا أو فاضلاً. فنحن نخشى أهل الفضيلة أكثر من غيرهم، فهم يحسبون أنهـــم يُخجلونـــنا لـــو تلبّسوا بلباس الفضيلة، ثم تجدهم يحـــاولون تقويض ما بنيناه. إنهم أنذال يعترضون على التعذيـــب وبـــيوت الأشـــباح، بـــل ويَدْعون إلى الرفق بالخاطئين!

ويقولون: أين حقوق الإنسان؟ حقوق الإنسان عندنا ما بيـــن اثنيـــن: حذائي هذا وبندقيتي. الحل يا صاحبي هو فوهـــات البنادق، وسياط الجلادين. سنقتل أهل الفضيلة ولو كانوا يصلّون، وسنظل نقدم أبناء الخاطئين ـــ وكل شـــعب المشـــروع الحضاري من الخاطئين في عرف الـــناطور الســـمج ـــ قرابين على مذبح الموت المجيد!! ولـــن نســـمح لأحـــد أن يسألنا عن السبب. نقتل، نذبح ونغتصـــب.. فهـــذا علـــى بشاعته يهون. نحن يا أيوب نرتكب الموبقات في سبيل التمكين للمشروع الحضاري. خذنـــي مـــثالاً يـــا أيوب، أنا على أتم استعداد للتضحية بأطفالـــي وأطفالك، بأمي وأمك، بأبي وأبيك. نحن على اســـتعداد للـــتخلص مـــن نصـــفكم وتطبـــيق المشروع الحضاري على النصف الآخر ولو تحولوا إلى مجموعة من الـــهياكل العظمية.

هـــذه بلادنـــا ومربط خيلنا تعيشون فيها بمكرمة منا، وبشـــروطنا فقط. وإن لم يعجبك الحال فلديك خيار من ثلاثـــة: ســـجوننا، أو المـــوت في حربنا، أو الـــهجرة النهائية.. أفهمت يا صاحبي أم لا؟!



أتبع الشرطي تعليماته بابتسامة صفراوية وسألني بطريقة سمجة: هل دفعتَ زكاة أموالك؟ فلما أخبرته أنني مواطن من طراز أيوب، ولا تجب في أموالي الزكاة. وكيف يَصِحّ أن تجبي الزكاة مني وما أكسبه من عملي لا يكفي حتى نفقات المعيشة اليومية؟!

نظر إليّ الناطور بعينيه الحمراوين.

فحرصتُ أن أبدي أقصى علامات التذلل والاستعطاف.. انفجرتُ أبكي بدموع حقيقية قبلت يديه وقدميه وقلبي يشتعل غضبًا، وإحساس بالمهانة تخلل كل مسام جسدي المنحني أمام الناطور وبندقيته القديمة — قديمة لكنها تطلق الرصاص وتقتل.

صمت الناطور برهة حتى كدتُ أحسبه سيَلِين. لكنه انتفض فجأة "كأنما ليطرد سحابة إنسانية عابرة" ثم صوّب بندقيته العتيقة إلى صدري وطلب مني الإتاوة السنوية ولو اضطررت إلى اقتطاعها من قوت أولادي — ولو كان لي أولاد — وكان "المنحط" يهددني ووجهه يشع بنور "الإيمان" أو لعله كان وميض الشبق. فقد

مـــرّت مـــن جانبــــي مقـــلاق وشاحٍ[1] "تناسب المزاج الحضــــاري". عندما رأى حيرتي انفجر ضاحكًا بصورة لا تتفق مع ما نصحني به. كدت أن أنبهه إلى عدم وقار ضـــحكته، ووقاحـــة نظراته إلى مؤخرة مقلاق الوشاح التـــي كانـــت تتعمد أن تُظهر مواهبها، إلا أنني تذكرت نصيحته ووعيده فلزمت الصمت، تصبب الناطور عرقًا ومقـــلاق الوشـــاح تتغنج، أشارتْ إلى غرفة جانبية فلم يـــتمالك الـــناطور نفسه، وكان من الواضح على مقدمة بـــنطلونه "انتفاخ" شبق، أخلى حال سبيلي بعد أن تركتُ لـــــه ســـاعتي الوحـــيدة. انطلقتُ أجري بعيدًا عن ذلك المكان القبيح وأنا أشكر كل محترفات وغانيات شوارع اللذة والشقاء!!

خواطر المواطن السوداني أيوب وهو في طريقه إلى العمل

كـــان الـــيوم عاديًا. شمس قاسية ولا مكان لـــه في الحافلـــة التـــي يسعل محركها دخانًا مختلفًا ألوانه. إذن "فليتشـــعبط". ويعلـــم أيـــوب كذلك أنه لا مكان لـــه في خطط التنمية لكن هذا ليس من شأنه؛ فالساسة مشغولون

---

(1) امرأة ممتلئة.

بهمومهم اليومية.. ومن سيغلب من؟ وكم سفير دولة أجنبية سيلتقون اليوم؟ لكن لا شأن لأيوب بهذا أيضًا.

أيوب يلبس بنطلونه المخطط، وقميصه الأزرق الداكن، وحذاءه العتيق الذي فقد لونه منذ أمد بعيد. خرج أيوب من منزله وهو يلعن اللحظة التي ولد فيها؛ فالماء قد قُطع منذ ليلة البارحة، والكهرباء كذلك. وقد نفدت البطاريات في مذياعه العتيق فلم يستطع سماع "هنا أم درمان" تلعلع. وتفلسف أيوب قائلاً لنفسه: رُبّ ضارة نافعة، فقد وفرت عليه الإدارة المركزية ـــ شركة الكهرباء الحكومية ـــ وجبة الدونكيشوتية اليومية.

ويا لها من وجبة: (تهديد للمواطنين الذين يرتكبون جريمة التفكير مع إنذار نهائي لأمريكا، ثم يعرج البرجوازي الصغير للغاية ذو الأوسمة والنجوم اللامعة على أنباء الانتصارات التي حققتها قوى الإيمان على قوى البغي والصهيونية والصليبية...). لعن أيوب الجميع في سره، ثم لعن نفسه وهو يتذكر تلك الكلمات المغرورة:

أمـــريكا وروسيا دنا عذابها
وإني إن لقيتها عليَّ ضِرابها
أو
لـــن نـــذل ولـــن نهـــان
ولـــن نطـــيع الأمـــريكان
لـــــــــيكم تدربـــــــــنا

رغـــم هذا تفاءل أيوب لأنه لم يدهم أذنيه ذلك النشيد السمج أو غيره من أناشيد المشروع. لكنه أسِفَ لأنه لم يســمع أخبار الوفيات علّــه يستطيع تناول وجبة شهية فـــي خيمة عزاء استثمارية. فقد أشاع أثرياء المشروع الحضاري. رهبان الليل فرسان النهار. عادة خِيَم العزاء التـــي يأتـــي الطعـــام فيها من الفنادق الكبرى. فاضطر الأغبـــياء الأغنياء من غير الحضاريين إلى مجاراتهم. وبيـــنما كانـــت خيم الحضاريين مقصورة على أتباعهم، فـــإن خـــيم الأغنـــياء "الأغبياء" الآخرين كانت مفتوحة للجمـــيع. ففـــي زمان العاصفة الصفراء هذا تحوّل كل معـــنى جميل إلى سلعة. حتى "موائد الرحمن" التي أشيع أنهـــا للفقـــراء المعدمين أصبحت محل تنافس بين أهل

المشـــروع الحضـــاري. هذا أتى بمرسيدس وهذا بلاند كروزر وآخر أتى بكريسيدا. أما الفقراء فقد أزيحوا إلى الصفوف الخلفية ليأكلوا الفتات، وأمام شاشات التلفزيون إمعانًا في "المن والأذى".

أول الغيث:

وصل أيوب إلى المحطة الوسطى في الخرطوم، ومع أن الصـــباح كان في أولـــه، لكن الشمس كانت تلـــهب جلـــده بأشعتها، والضوء اختلط بنسمات الصباح المعبقة بـــرائحة دخـــان الســـيارات والشاحنات والمياه الراكدة وفضـــلات إنسانية وحيوانية. فتحت المقاهي والمطاعم أبوابها، وساد صخب لا لون لـــه. تعبيرات مكفهرة فيها اصـــفرار علـــت الوجـــوه المرهَقة. مرّت عربة فاخرة بســـرعة جنونية فأراقت على الجميع بعض مياه الشارع الـــراكدة. ســـبّ أيوب ولعن حظه العاثر. فرائحة المياه العَطِـــنة مـــع رائحة عرقه على القميص الداكن القذر، أضـــافا إلـــى معاناتـــه. فهو لم يستحمّ منذ يومين لندرة الماء. "مصيبة شنو دي يا ربي" تأفف من نفسه وقذارته، ولعن البلد واليوم الذي ولد فيه. دخل إلى مرحاض واحد

مـــن المطـــاعم وأراق علــــى رأسه بعض الماء. غسل إبطـــيه، ثـــم تـــركهما تجفان. نظر إليه صاحب المطعم شـــزرًا "فاستخدام المرحاض للزبائن فقط". شرب كوبًا مـــن الشاي بالحليب وتغلب على طعم الحليب المشرف على الفساد بخمس ملاعق من السكر.

قـــام أيـــوب متثاقلاً ليتوجه إلى مصلحة الثقافة حيث يعمل. مهمته الرسمية هي المشاركة في التخطيط لتغيير المجتمع "الراسخ في علمانيته المستسلم للدعاية المتقاعس عن الجهاد" و"إيصال قيم المشروع الحضاري الغنية إلى أناسٍ كانوا فقراء الثقافة طوال تاريخهم". أي كان دوره وســـــطًا ما بين وزير دعاية هتلر، وكاتب الحجاج بن يوســـف الثقفي. لـــذا كان أيوب يسميها أي وظيفته "طز في الثقافة" وعندما يضيف بعض أصدقائــــه اللصيقـــين ــ فقد عزَّ الأصدقاء في هذا الزمان ــ حرف الياء إلى منتصف الكلمة لم يكن يضحك أو يغضب كثيرًا.

حكايات الزمن الرديء:

كان أيوب يكره عمله. كان يعلم أنه يشارك "الأوباش"

معــركة تزيــيف الواقــع. كان يراهم بعين كسيرة وهم يمارسون أبشع ما في قاموس المحرمات. ولم يكن يملك إلا التصــفيق. فالأوبــاش يعتــبرون الصمت تواطؤًا. الصــمت فــيه وقار وتربص. الصمت فيه مَعانٍ تحمل بذور الثورة على عهدهم المزري. كانوا يريدون صخب التكبــير والتهلــيل والتصــفيق لحجــب أنين الجرحى والجائعيــن والفقــراء، وكانوا يطربون لسماع الزغاريد الجوفــاء للأمهات اللاتي يُحرمن من البكاء على أبنائهن القــتلى في محرقة الحرب العبثية، إنها زغاريد "عرس الشهيد" الذي تفتقت عنه عبقرية الفاشست:

يقتل الطفل في حرب الجنوب أو من ملاريا الأدغال أو حتى جوعًا أو ربما اغتصابًا على أيدي "أئمة الجهاد" فتُمــنع الأم من البكاء أو العويل لتروّح عن نفسها. لا.. بــل يطالــبها شــيوخ المشــروع الحضاري بأن تطلق الزغاريد فرَحًا؛ لأن ابنها الآن يمارس الجنس في أرقى درجات الجنة مع واحدة من ملكات جمال الحور العين، فإذا أصرت الأم الثكلى على أن تروّح عن نفسها وتطلق دمعــة، فإنهم يهددونها بالويل والثبور، ثم يرمون قدرًا

من الدقيق والسكر وربما بعض الأقمشة، ثم يذهبون كما أتـــوا. وهكذا فلن يصبح في كل شارع مأتم بل في كل شارع عرس وزغاريد. هكذا يتصورون السعادة.

لا دخان بلا نار:

وكــان أيــوب يســتفظع هذا وينكره. حتى دخل إلى حارتـــه ذات يــوم، فــإذا به يرى حافلة مليئة بسيدات محجــبات، وبعــض الملتحين وهم يغنون في أصوات رقــيعة خارج منزل "السرة" جارته. وكانت هناك خيمة أمام منزل السرة. وكان للسرة ولد وبنت، فقال فيما بينه وبين نفسه: الأمر واحد من اثنين: خطوبة البنت مهيرة، أو أن أمــرًا مــا حدث للولد. كان اسمه خالدًا على ما يذكر. كان صبيًّا مرحًا حاضر البديهة والنكتة. ثم اختفى مــن الحــارة زمــنًا طويلاً. سأل عنه أيوب ذات مرة فأخــبرته السرة بأن خالد يجاهد الكفار، فسألــها أيوب: وكيف عرفت يا خالة أنهم كفار؟ فرمته بنظرة حائرة ثم هــزت كتفيها وقالت: والله هم حدثوني بهذا. ومَن هم يا الســرة؟ قالت: أصحابه الملتحون. لكن خالدًا كان على وشــك إتمام شهادته الثانوية. ذلك اليافع اليتيم أين هو يا

تــرى؟ وجالــت أحاسيس شتى في رأس أيوب، وقضى أيامًــا كثــيرة وهو يتساءل في نفسه عن مصير خالد، الشــاب الغضّ الغرير الذي لم يبلغ الحلُم بعد. ثم عرف كــل شيء عندما رأى السرة تكفكف دموعها أمام شيخ "حضــاري" وهو ينتهرها. مات خالد في الجنوب وكان ذلك عرس الشهيد.

ضمير أيوب:

مــا كــان يدفع أيوب إلى المضي قُدمًا في دربه مع زبانية المشروع هو المرتب الذي يتسلمه آخر كل شهر. وبعــض الإعانات الأخرى التي تجعل من حياته وحياة خالــته محتملة إلى حدٍّ ما، بل ومكّنته في بعض الأعياد من إرسال بعض المؤن إلى شقيقته. وكان أيوب يغضب بعــض المــرات من ضعفه وتخاذله. لكن في مصلحة الــثقافة كــان ضميره وغضبه يختفيان تحت أكوام من المطــبوعات الصفراء المليئة بالتعبيرات "الوقورة"، ولم يكــن أيــوب يرى قادة المشروع الحضاري إلا وعلى وجوههــم "تكشــيرة" بشــعة أو ملامح جامدة. وكانوا يعتبرون هذا من قبيل الوقار ولإرهاب العلمانيين القردة

مـــن أمـــثالـــه، حتى ولو كانوا من المؤلفة قلوبهم. لكن أيوب كان يعرف ما يجري في الظلام. فهم كانوا يحبون "كذلك" النساء اللاتي يتغنجن وخاصة من وراء حجاب. وكنـــت تســـمع الضـــحكات الرقيعة من وراء الأبواب المغلقـــة، وكـــانوا يهتزون طربًا للنكات الخارجة ــ ثم يمنعون الضحك بصوت عالٍ في برامج التليفزيون.

كانـــت معظـــم السياسات الثقافية والأكاذيب المنمقة تصاغ وتحاك في مصلحة الثقافة حيث يعمل أيوب. كان أنصـــاف المثقفين يزحمون دهاليز حكومة الحضاريين. فهؤلاء كانوا السلعة المرغوبة. فكبار الشيوخ يعتبرونهم علمانييـــن لم يستطيعوا الـــهرب من المقصلة الصفراء فاضـــطروا إلى الانحياز إلى المشروع الحضاري، فهم بالتالـــي مـــن المؤلفة قلوبهم. ثم إن أدمغتهم كانت خالية بالفعل من أي أفكار حقيقية تهدد المشروع الحضاري أو غـــيره مـــن المشاريع الفاشلة التي مرت على العاصمة الكئيـــبة، وبالتالي فسيصبح من السهل الإملاء عليهم ما يـــريده "الحضاريون". هذا بالإضافة إلى أن سعرهم لم يكن باهظًا. إنما يتلخص في منحهم وظائف منتظمة، ثم

رحلـــة أو رحلتيـــن إلى واحدة من العواصم القريبة أو البعـــيدة كـــل عامين أو ثلاثة. ولِهَوان شأن هؤلاء فإن التخلص منهم سهل للغاية. ولن يتذكرهم أحد.

شيء من أيوب:

كـــان أيـــوب يكره حقيقة أنه واحد من الذين يعتبرهم الحضاريون "من المؤلفة قلوبهم"؛ فهو وإن لم يكن مثقفًا يشـــار إليه بالبنان، إلا أنه كان صادق الإحساس، طيب القلـــب. وكان يمتاز بوسامة وجهه وتناسق جسده. كان أيـــوب يتـــيمًا أرملَ بلا أطفال؛ فقد ماتت زوجته وهى تنجب طفلاً ما لبث أن لحق بها بعد أيام قلائل. ولم يكن مـــن أسرة كبيرة. كانت لـــه أخت تزوجت وتعيش مع زوجهـــا حـــياة الكفـــاف في كردفان، وخالة مقعدة كان يتجنب زيارتها بانتظام لعجزه عن الإنفاق عليها. وأيوب جامعي درس في جامعة الخرطوم في عصرها الذهبي، وســـافر في بعثة إلى الخارج، لم يستطع إكمالـــها حتى شـــهادة الدكـــتوراه، لكنه عاد "بدبلوم عالٍ" في الإخراج

المسرحي ورصيد لا بأس به من اللغات الأوروبية وتجارب في الحياة كان يحسبها سترفعه إلى الأعالي في عاصمة "النيل والتراب".

أقطاب بيزنطة:

العاصمة التي كانت في تلك الحقبة على شفا الانهيار، على الرغم من بعض بقايا الانتعاش التي شهدته لفترة قصيرة من تاريخها. لكن أيوب لم يكن قادرًا على الاندماج في ما كان يسمى بالوسط الثقافي. شباب وشابات يمتازون بالجرأة على العلم والتقاليد. كانوا يحسبون أن العالم خارج نطاق العاصمة المثلثة[1] ما زال يعيش زمان الهيبيز وبريخت والثورة الجنسية. كانوا يحسبون أن "أنجيلا ديفيز" ما زالت ترتدي القمصان الأفريقية وترفع قبضتها في الندوات الجماهيرية، وأن الغرب ما زال يقبل أفكار "تيموثي ليري" كأنها قرآن منزل. كانوا يمتازون بقدرة عالية على الاجتراء على الحقائق بدعوى أن العالم يعيش

(1) العاصمة المثلثة هي: الخرطوم وأم درمان والخرطوم بحري.

الحداثـــة. وبالطـــبع كـــانوا يكتبون القصص القصيرة، والقصائد النثرية، ويقاطعون الاستحمام باستبسال شديد. كـــانوا يحـــاولون جهدهم إقناع رفيقاتهم بأن العذرية لا مكان لـــها في عالم الحداثة الذي خلع رداء الرجعية منذ أمـــد طويل. لكنهم كانوا لا يعرفون كيف يتغلبون على المصـــاعب التـــي تواجه الشابات اللاتي كن بالطبع من ضحايا الختان الفرعوني القاسي، الذي يمارسه المجتمع السوداني ضد المرأة، كعقاب سرمدي.

فكانت النتيجة أن الشباب كانوا يُشبعون فحولتهم بكل سذاجة غير المجربين. وكانت الشابات ينظرن في بلاهة بعـــد كـــل "ممارســـة" إلى الأفق ويتساءلن سرًّا عن لذة الجـــنس، ثـــم يدركن أن الشباب الذين كانوا فوقهن أقل إدراكًا بحجم المأساة المشتركة. لكن الجميع كانوا يمثلون أدوار العشق في خداع غريب للذات. كانت تلك بيزنطة التي أصبحت عاصمة المشروع الحضاري قبيل الكارثة الصـــفراء التي أنشبت براثنها في جسد المجتمع الغضّ الفقير المعدم، والذي يمارَس عليه الحصار وتتبول عليه الأمم منذ خمسة آلاف عام.

بلاهة أيوب:

أدرك أيـوب منذ أن عاد إلى العاصمة أن الجو العام فـيها لـن يسَع أمثالـه من أصحاب التجارب الحقيقية. وأن مـثلـه خطـر علـى تلك الشلّل. فقد قابلوه بشكّ وتجهـم. وحتى عندما كان يحضر بعض تجمعاتهم كان يرتكـب الأخطـاء بقصـد وغير قصد. وكادوا ــ أي حـراس الثقافة ــ أن يشنوا عليه حربًا شعواء ذات مرة لأنه تجرأ وصحح أحد كبارهم وهو يتقيأ شعرًا نسبه إلى بـارتوك. فقال أيوب في براءة إن بارتوك موسيقي من هنغاريا، اشتهر بالسيمفونيات ذات الإيقاع السريع، وأن ذلـك الشعر ربما كان ترجمة رديئة ــ لم يقل رديئة بل قـال غـير متقـنة ــ لأبـيات من فاوست. فنظر إليه "المـثقف" نظـرة ازدراء ولـم يتكلم، بل تركه لصغار المتثقفين ينهشون لحمه ببذاءتهم.

أدرك أيوب الخطأ لكن بعد فوات الأوان. وكان يدرك أن جمـيع الأبواب ستغلق أمامه. فتقوقع على ذاته وقنع مـن الحـياة بالقلـيل. حاول العمل في المسرح القومي فرفضوه. فذلك كان ناديًا مخصصًا لشلة معينة. عمل في

مصـــلحة الثقافة فتجاوزه جميع أقرانه في الترقيات وفي الصيت؛ فالمصلحة أيضًا كانت من الأندية المغلقة على شـــلة أخرى. وعندما هبّت العاصفة الصفراء قبيل نهاية عقد الثمانينيات من القرن المنصرم كان أيوب يعمل في صـــحيفة ثقافية بعد الظهر وصباحًا كان ينام على مكتبه فـــي مصلحة الثقافة. توسم فيه الحضاريون خيرًا فعينوه فـــي وظيفة بنفس المصلحة بعد إعادة تنظيمها. لا ينكر أنهم منحوه راتبًا أفضل من راتبه، ومكتبًا منفصلاً لأول مـــرة في حياته، لكن الثمن كان باهظًا. فقد تغير منصبه مـــن وحدة البحوث والدراسات، إلى المشاركة في إدارة كاملة ذات إمكانيات ضخمة، مهمتها إعادة صياغة حياة أمة كاملة، تسكن بلدًا شاسعًا شبه قارة. فحسب ما يرى أهل المشروع الحضاري فإن السبيل الوحيد للتغيير هو عـــبر الأكاذيب، وإعادة كتابة التاريخ وتزيين الإرهاب. وبالطبع يجب على أمة المشروع الحضاري أن تستعين علـــى "قضاء حوائجها" لا بالكلمة فقط، بل بسيف الدين الـــذي يكفّـــر كل من يقف أمامه، وأن العقاب يأتي قبل الموعظـــة الحســـنة، وأن الســـبيل لحكم الناس هو عبر أسلوب "جوّع كلبك يتبعك" أو "فرّق تسد" أو الاثنين معًا.

كـــان أيوب يعلم أن عليه أن يعمل على تغييب وعي الشـــباب وإقناعهم بأن التمرد ضد المشروع الحضاري كفر، وأن من تمرد كفر. إذن فكل المتمردين كفار، وأن الحـــل الوحـــيد هو حد السيف وفوهة البندقية، وأن كل احتـــياجات الحياة تهون أمام المشروع الحضاري، وأن الغـــرض الحقيقـــي للإنسان هو دخول الجنة، لا عمارة الأرض أو بـــناء الحضـــارة. فلـــو عدنـــا إلى العصر الحجـــري فلـــيس في هذا ما يعيب ما دمنا نلتزم بثوابت المشروع. كان أيوب يكتب هذا الـــهراء ثم يضيف إليه بعـــض الـــبهارات مثل "إن واجبنا كحضاريين أن نعيد لأبيـــنا آدم مـــا اســـتلب منه ذات يوم استجاب فيه إلى وسوســـة الشـــيطان". وكان يخاطب الشباب: أما دخول الجنة فليس صعبًا كما كنتم تتصورون. إنه أمر مضمون فقـــط "اقـــتلوا وأحرقوا ودمروا واغتصبوا إن استدعى الأمـــر ثـــم موتـــوا"، عـــندها ستُزوَّجون الحور العين، وتُمنحون قصورًا في الجنة. ومهما كانت بشاعة المعاني الكامـــنة في كلمات أيوب فقد كان يبررها لنفسه بأن هذا

هــو خطّ الذين يدفعون راتبه. وهو سيمارس هذه المهنة التـــي لا يعــرف غــيرها. وسيقتل ضميره وسيصمت كغيره.

وكانـــت مهمـــة أيوب أن ينقل هذه المعاني في ثوب عصـــري؛ أي أن يمـــارس الكذب في أناقة فائقة. كانت تقــف أمامـــه بعــض المفاهيم الجنسية، وكيف ينقلـــها لشـــباب يقتلـــهم الشبق والـــهرمونات ويريدون الجنس الآن. ومعظمهـــم لا يفهم لماذا عليهم أن يقتلوا القرويين الوادعيـــن في أدغال جنوب السودان كي ينالوا رضوان ربهـــم وجنات عرضها السماوات والأرض مليئة بأنهار من الخمر والنساء اللاتي يشبهن ممثلات السينما؟ وفوق هـــذا وذاك يتمتعن بعذرية قابلة للتجديد، عكس الفاسقات مـــن ممـــثلات هوليود اللاتي فقدن عذريتهن منذ نعومة أظفارهن، وبالتالي أصبحن سلاحًا أساسيًّا في يد "حكماء صهيون". كان أيوب يقول لـــهم إنه لم تقم سينما هوليود إلا لتدمير أخلاق شباب المسلمين. وقد أثبتت هذا "وثائق سرية" عثر عليها الحضاريون وهم ينقبون عن مؤامرات الـــيهود ضـــد عالمـــنا "التقي النقي الطاهر". ويتساءل

الشباب أيضًا: لماذا لا يتحول المشروع الحضاري إلى جنة هنا في الأرض؟ ولماذا لا ينصرف الاهتمام إلى التنمية والسلام والمحبة، ومحو الأمية ومقاومة الملاريا؟ لماذا يجب عليهم أن يكمموا أفواههم بأنفسهم وأن يقتلوا شبابهم؟ ثم أين القدوة الحسنة؟ ولماذا يرون كبار الحضاريين في سياراتهم الفارهة ومنازلهم الفاخرة؟ ويرونهم لا يشاركونهم شظف العيش؟ وأين أبناء الكبار الذين تفتح أمامهم أبواب الدولة والمصارف الإسلامية والمنح والبعثات والاستثناء من الخدمة في محرقة الحرب الأهلية؟ أليس ذلك نفاقًا؟!

كانت مهمة أيوب أن يصرف عقولهم عن كل هذه التساؤلات. كان يكذب وينمق الكتيبات التي تطبع في مطابع محلية وخارجية. كان يتقن تزييف الإحصائيات والرسوم البيانية. كان يتقن كذلك نقل أنباء المعارك والمعجزات والكرامات التي لا تنتهي في مناطق القتال، وكيف أن الحيوانات والقرود كانت تنزل لتقاتل مع المجاهدين، وكيف أن العطر كان يفوح من جثث المجاهدين بينما كانت جثث أعدائهم تشتعل نيرانًا أمام

الجمـــيع. ولربما هذا يفسر عدم وجود أسرى من جنود العـــدو!! كان يكتب أخبار الطفرة التنموية، وأن النقص فـــي الخـــبز إنما هو من مؤامرات الأعداء، وأن دولة المشروع الحضاري مزقت فواتير الغذاء والدواء وقريبًا الســـلاح أيضًا، وأن ما تنقلـــه إذاعة لندن وغيرها من الإذاعـــات الكافرة إنما هو لتشويه صورة هذا المشروع الـــذي هـــز الكرة الأرضية وما عليها ومَن عليها. كان يكتـــب هـــذا الـــهـــراء وهو يعلم أنه يكذب، وكان قلبه يـــتفطر حـــزنـًا لكنه كان يعزّي نفسه بأنه لا أحد يصدق الحكومـــة. ثـــم إن لم يكتب هو هذا الهراء كتبه غيره. ومَن ينقذه حينئذٍ من شبح البطالة والجوع؟

تمهيد قبل الكارثة:

أيوب في مصلحة الثقافة. مقرها بيت قديم كان مكتبًا مـــن مكاتـــب جيش الاحتلال البريطاني. الطاولات من خشب كان متينًا ذات يوم. الجدران قديمة باهتة الطلاء. الحديقة شاسعة المساحة باهتٌ زرعها. الموظفون أشباح لا ترى في ذلك المبنى القميء. فالتزام الصمت والوقار

مــن شــروط الاستمرار في العمل بدون مضايقات من شــرطة الــرقابة الإدارية، التي تجوب المصالح العامة والخاصة ليل نهار بحثًا عن نوعين من أعداء المشروع الحضــاري: الــنوع الأول من يرتكبون جريمة التفكير بصورة تعرض أمن المشروع الحضاري، وأفكاره إلى المســاءلة المنطقية. أما النوع الآخر فيتكون من أولئك الذيــن انتفى الوقار في أنفسهم فيمارسون حياة علمانية فيها ضحك ونكات بل وابتسامات ذات معانٍ غامضة.

الغريــب فــي الأمر أن الرقابة الإدارية كانت تغضّ البصــر عــن ممارسات دهاقنة المشروع في المكاتب المغلقــة التي تتجاوز الضحك إلى اللمسات بل والزنى الصــريح الــذي يعاقــب عليه المشروع بالجلد والرجم والســحل والقطع مِن خلاف. لكن لم يكن أيوب من أي من المعسكرين. فقد عَطّل عقلــه منذ أن انقضّ الأوباش على السلطة، وأصبح شعار المرحلة "انجُ سعد فقد هلك ســعيد" أو"دعوني أعيش".. كان فقط يريد تمضية يومه بــدون منغصات ما أمكن ذلك، وأن لا يتهدد عارض ما دنانيره التي يقبضها آخر كل شهر.

تـــناثرت الصحف اليومية على الخشب العتيق. تناول صـــحيفة لَطّخـــت صفحتها الأولى صورةٌ كبيرة لمولانا الذي يُحلّق في الأعالي وبقربه الجنرال الحضاري وهما يرقصـــان طربًا، وتحت الصورة عنوان بالخط العريض الأحمـــر: انتصـــار ساحق لقوى الحق على فلول البغي والضلال، وفرائص أولبرايت ترتعد.

ضحك أيوب في سره، ثم تناول صحيفة أخرى. قلّبها بسرعة فلم يجد نتائج مباراة الـــهلال والموردة، رماها. ثـــم ذهب إلى حيث يجلس كل يوم. أتاه الساعي بالبريد اليومـــي، وملف ضخم كُتب عليه بخط أندلسي "مهرجان الفـــن الحضـــاري الإسلامي الثالث". وقال لـــه: المدير يـــريد الرد قبل نهاية اليوم. سألـــه أيوب بضجر: لماذا؟ رفـــع الســـاعي حاجبيه ومَطّ شفتيه؛ أي لا أدري. فتح الملف وقرأ أول صفحة وكانت بداية بحث عن "ضرورة الـــتلاقح ما بين الإسلام والفن الراقي". لم يكملـــها فقد كان يعلم البقية، فكاتبها كان من الحضاريين المتحذلقين المغرميـــن بـــربط نصـــوص القرآن بالحداثة وما بعد

الحداثـــة، ثم يحشو كتاباته بأسماء فلاسفة أوروبيين من أصـــحاب الشأن العالي ــ لم يسمع بهم أيوب من قبل، وهـــو مـــتأكد من أنه لا وجود لـــهم ــ وحسب الكاتب المـــتحذلق كـــان الفلاسفة الكبار لا يُخفون إعجابهم بما وصلتْ إليه دولة الحداثة الإسلامية وعاصمتها الخرطوم من شأنٍ عالٍ، وكان بعضهم لا يُخفون تخوفهم من خطر المشـــروع الحضـــاري علـــى دولـــهم. وبعد أن يعدد المؤامـــرات التـــي تـــأكد من وجودها بعد عثوره على "وثائق" سرية. كان يكتب بعض الأبيات من الشعر الغثَ المملّ، يدّعي أنها ترجمة لنص أجنبي من اللغة الفرنسية أو الروســـية تتحدث عن الفضيلة وتمجّد شأن حراسها، وفـــي النهاية شرح مطوّل لما يمكن أن يكون عليه حال العـــالم الإسلامي لو اقتنع المسلمون بصلاحية المشروع الحضـــاري للاســـتهلاك الآدمي، ثم يوقع اسمه ويقبض ثمـــن الـــهراء الذي كتبه بالعملة الصعبة أو السهلة. ولا ينســـى الكاتـــب أن يُـــرفق ورقة البحث فاتورة ضخمة بالتكاليف التي تكبدها، ومنها بالطبع قيمة الرشاوى التي اضـــطر لدفعها كي يتحصل على الوثائق السرية!! لعنه

أيــوب في سره ثم بدأ يكتب نقدًا موضوعيًّا للورقة. بل وشــكّك فــي مصداقية بعض ما جاء فيها وتساءل عن أســماء الفلاســفة الذين لم يسمع بهم أحد قبل ذلك. ثم توقــف برهة وقرأ ما كتبه. مزق الأوراق بقرف شديد؛ فهو يعلم أن الكاتب قريب جدًّا لأهل المشروع، وانتقاده قــد يؤدي به إلى هاوية البطالة والتشرد، وربما ما هو أشدّ.

آثر أيوب السلامة:

كتــب أيــوب تعليقه المعتاد: ورقة بحث هامة يجب إدراجهــا فــي بــرنامج محاضرات المهرجان. وكتب صــفحتين من النفاق "الأنيق" عن عبقرية الكاتب، وأثنى علــى جهــوده، وكيف أنه قد تأثر بسبب التواضع الجمّ وإنكار الذات اللذين أبداهما كاتب الورقة. إذ إن التكاليف التي أرفقها لا ترقى في نظره إلى ربع التكلفة الحقيقية. وتمــنى أيوب أن ينظر المدير العام بعين العطف حينما يأتــي الأمر إلى صرف المكافأة، وأن يضاعف ما طلبه الكاتب ــ فالعدل هو شعار دولة المشروع الحضاري ــ وزاد علــيها مــن عنده: يرجى تكليف عدد من الفنانين

الملتزمين بكتابة بعض الأغاني والمسرحيات التي تحضّ علـــى الفضـــيلة، وتدعـــو إلـــى إرســـاء قيم المشروع الحضـــاري، مع تخصيص ميزانية مناسبة لترجمتها إلى بعــض اللغــات الأوروبية. ولم ينسَ أن يطالب بتشديد الـــرقابة على برامج التلفزيون لحماية الشباب من الغزو الثقافـــي، وأتـــبعها بمـــا تيسر لـــه من آيات وأحاديث، وبعض المقتطفات من محاضرات "الشيخ الذي يحلّق في الأعالي". ثم نادى على الساعي ليحمل الملف إلى غرفة المديـــر العام. وكانت الساعة لا تزال واقفة عند ما قبل العاشرة صباحًا وفي عناد مريب.

الإفطار الأخير:

أفطـــر أيوب في مطعم المصلحة. واسم مطعم يطلق علـــيه مجازًا فهو عبارة عن أكوام من الحجارة وضعت بشـــكل نصـــف دائرة حول قدر من الفول، وامرأة خط الشـــيب حاجبـــيها جلســـت علـــى "بنبر"[1] تقدم الطعام وأكواب الشاي وتعلو فمها ابتسامة "محترفة" ــ لكن أين

(1) بنبر: مقعد شعبي.

لـــــه بمـــا تُلمّح به من خدمات أخرى ــ هَرس الفول بأســـنانه الحـــادة، واحتسى كوبًا من الشاي، ثم عاد إلى مكتبه، وأسند رأسه على الطاولة وغطّ في سبات عميق كـــان يرجو أن لا يفيق منه حتى نهاية الدوام الرسمي. رأى أيـــوب نفسه في عالم بائعة الإفطار وهي تقدم لـــه حســـناء تضمخت "بالدلكة" واصفرّ جلدها من "الدخان". كانـــت مليئة بالتضاريس بدون بدانة مفرطة. تبسم فمها وأومـــأت لــــه فتبعها إلى غرفة مظلمة ما إن فتح بابها حـــتى اهتز جسده، وسمع صوتًا أتى صاعقًا كالرعد: يا أستاذ أيوب. يا أستاذ. فتح عينيه فإذا بالساعي أمامه يهز كـــتفه ويناديه. زجره بشدة لكن الساعي لم يتزحزح. ما بـــالك يـــا غـــراب البين؟ ماذا تريد؟ سألــــه أيوب وهو يمسح لعابه الذي سال على جانب فمه.

تأتي الرياح:

نظـــر إلـــيه الســـاعي ببرود وتشفٍّ وقال: يبدو أن شـــخيرك قـــد وصـــل إلى مكتب المدير يا أستاذ أيوب وتركـــته غاضبًا مكفهرّ الوجه، ويريد رؤيتك فورًا، ولا أدري ما هي العقوبة التي توعد بها يا أستاذ أيوب، لكنها

تــبدو شــديدة. قالهــا الساعي وقد ازدادت على وجهه علامات الشماتة. لعنه أيوب في سره ثم قام يغسل وجهه علّه يخفي احمرار عينيه. طرق باب مكتب المدير وهو يســتعيذ بــالله من الشيطان الرجيم، ويرجو أن يلــهمه بــرودة الأعصاب. فالمدير "حضاري" من طراز سمج، يــتحرّق شــوقًا إلى إيذاء كل مَن يشتبه في ولائهم. وما أســهل علــيه مــن كــتابة خطاب إلى مجلس الوزراء "الموقر" لإصدار خطاب فصل من العمل لأجل الصالح العــام، وهــو يعلــم جــيدًا معنى البطالة في عاصمة المشروع الحضاري.

ــ ادخل. قالــها المدير العام بعظمة. دخل أيوب وقد اكتست وجهه ابتسامة فشلت في إخفاء احمرار عينيه.

ــ يا شيخنا ــ قالــها المدير السمج بأبوية تبعث على القرف ــ أحقيقةً كنتَ نائمًا على مكتبك؟

صــمت أيوب وهو يحاول جاهدًا أن يمسك بآخر ما تبقىّ من أعصابه.

ــ يــا شــيخنا أنــا يمكنني أن أتخذ ضدك إجراءات

قاســية، لكنني لن أفعل، ودعها تكن آخر مرة، لكن ما أثــار دهشتي هو تعليقك على ورقة الإسلام والفن، وأنا الذي كنت أعتقد أنك من العلمانيين أعداء المشروع، لكن تعليقك أذهلني.

ـ جــزاك الله خــيرًا يا سعادة المدير ـ قالها أيوب وهــو يضــغط على كل حرف فيها كأنها طوق نجاة قد يغير حياته كلــها.

ـ وجــزاك ـ قالــها المدير العام وقد كللت سحنته الســمجة علامات الرضى ـ إذن فقد كذب هذا الساعي اللعيــن، أقســم بالله أنني سأفصلــه من العمل في التوّ والحال.

ـ المسامح كريم يا سعادة المدير، لكن عاقبه بما هو دون الفصــل ـ قالها أيوب وهو يعلم أن الساعي يعيل أســرة من الأفواه المفتوحة، وهو لا يريد أن يحمل ذنب الساعي على عاتقه المثقل بتركة من الذنوب والــهموم لا حصر لها.

ـ يــا أخ أيوب أمامك الكثير لكي تعلم مدى العدالة

الـــناجزة. وهنا تحولت سحنته المتهللة إلى هيئة خنزير مشـــوَّه، وارتفـــع صـــوته: هؤلاء هم أعداء المشروع الحقيقـــيون، ويجـــب ضربهم بيدٍ من حديد. إنهم معول أمـــريكا ورســـل الشـــيطان الذين يُشيعون القيَم الهدّامة ويُميّعون شبابنا ويثبّطونه عن الجهاد.

كـــاد أيوب أن يتثاءب وهو يستمع إلى الخطبة النارية مـــن ذلك "الحضاري" وضحك ما بينه وبين نفسه عندما تخيل الساعي المعدم بأسماله البالية وهو يتلقى التعليمات "كفاحًا" من مادلين أولبرايت.

ســـاد صمتٌ ثقيل المكتبَ الفاخر ثم أدار المدير العام مقعـــده الـــدوار ناحية النافذة المطلة على الحديقة غير المشذبة.

ــ أمـــامك مســـتقبل رائع يا أيوب. لكن هناك عقبة واحـــدة، هي أنك لم تذهب إلى الجهاد بعد، وهـــذا ــ ثـــم تنحـــنح ــ يضعف موقفك للغاية. لذا فأنا سأضـــيف اسمك إلى قائمة المتطوعين، وستغادر صباح الغد إلى المعسكر. وأدار المدير المقعد فجأة

لـــيواجه عيني أيوب الجاحظتين. وانطلق يضحك حتى سالت دموعه.

ـــ مـــا بالك يا أيوب أتخشى لقاء الأعداء؟ ثم بهمس يشبه الفحيح: أم أنهم ليسوا أعداءً بالنسبة لك؟

ـــ حاشا لله يا سعادة المدير. أنا أكثر مَن يكره أعداء المشـــروع الحضـــاري، وأعلـــم جـــيدًا صِلاتهم بالاستعمار وقوى الاستكبار. لكن يا سعادة المدير أنا أسد ثغرة هامة هنا تحت توجيهاتكم الرشيدة. ثم إننـــي قـــد تجـــاوزت سن التجنيد، وكما ترى فإن نظري ضعيف وركبتي معوجتان، و...

ـــ يـــا أيوب أنا سأرسلك إلى المعسكر حيث ستقضي شهرًا واحدًا فقط ثم تعود كيوم ولدتك أمك. سترقّى إلى منصب آخر. وستُشرف على مهرجان الثقافة إن شـــاء الله. اذهـــب إلى المعسكر يا أيوب ففيه خلاصك من الفقر إلى يوم القيامة. لكن تخلفك هنا يُحرجنـــي للغايـــة؛ فالمطالبين بمنصبك كثيرون يا أيـــوب، ومعظمهـــم من الإخوة المجاهدين. قالها المدير بصوت أقرب إلى الوعيد.

ـ ومتى الذهاب يا سعادة المدير؟ سأل أيوب وهو يحاول أن لا يظهر الحسرة التي تعتصر قلبه.

ـ الآن، سأتصل بمنسق المجاهدين، وستذهب إلى المعسكر في سيارتي الخاصة.

ـ ألا أحضر حاجياتي من المنزل؟

ـ لا داعي يا أيوب، أرجوك لا تُضِع الوقت. زمجر المدير.

صمت أيوب وتمتم بعبارات شكر وخرج من مكتب المدير وهو يلعن يوم ولدته أمه. حاول أن يتذكر مِنْ زملاء دراسته في موقع أهم من هذا الطفل المغرور ذي اللحية الكثة والنظرات الشهوانية. لكن كل الأسماء التي قفزت إلى ذاكرته كانت بعيدة المنال. فقد أصبح معظمهم من ذوي الحجاب والسكرتيرات والمساعدين والحرس الخاص. وكان القليلون منهم من الذين أبقوا على بعض دماثة أخلاق السودانيين يؤمنون حقًا بترهات المشروع الحضاري، ويعتبرون الموت في سبيله غاية لا وسيلة، بل وتلطخت أياديهم بدماء آلاف من أبناء هذا

الشـــعب المـــنكوب. فهم الذين يعتبرهم الشباب المضلل قـــدوة. ولـــو ذهـــب أيـــوب يطلب إعفاءه من الخدمة العســكرية لاعتـــبروه مـــن الأعداء الذين يجب دحرهم وقتالـــهم، وسيسمع ما لا يرضيه من المواعظ والشتائم في قالب منمق، وبابتسامات شديدة اللطف.

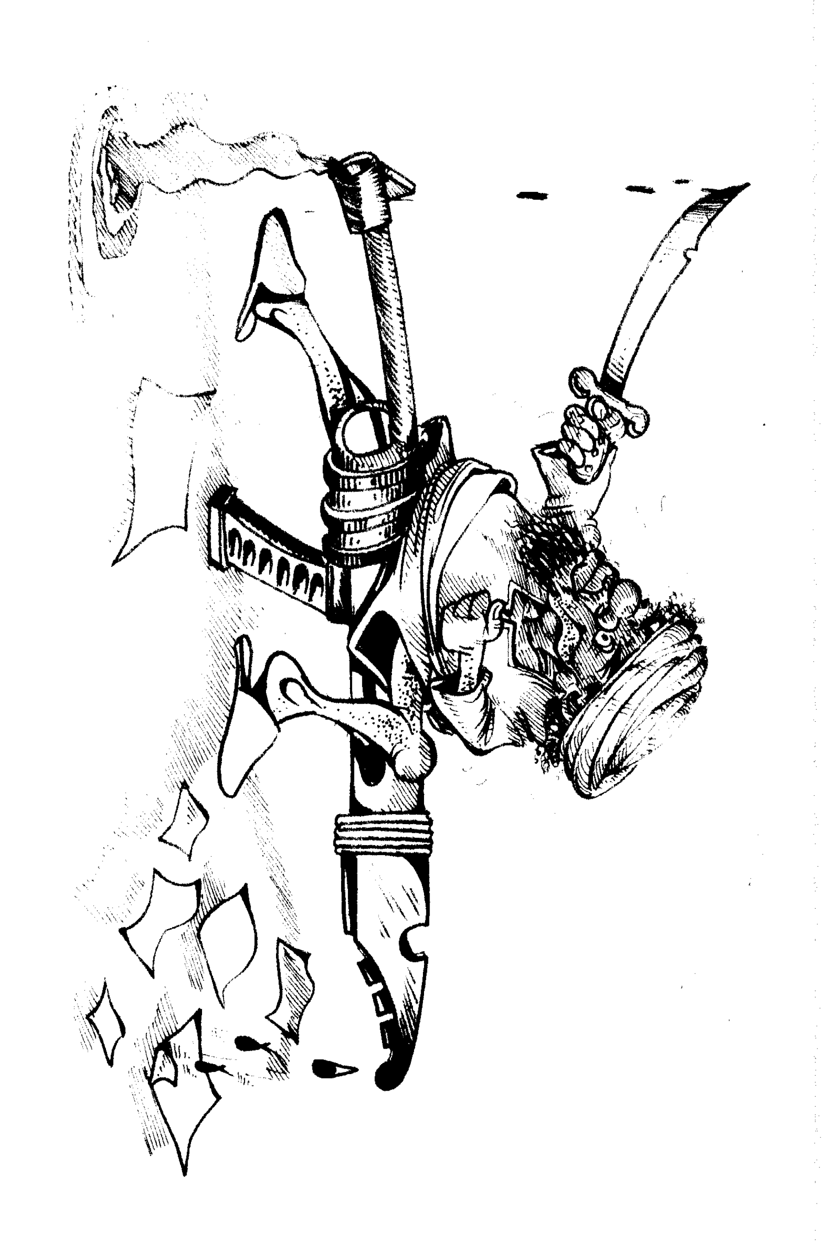
أيوب يناجي:

أبعـــد كل هذه السنين من الدراسة والبعثة الخارجية، وتاريخـــه النضـــالي المشـــرف ينتهي به الأمر إلى أن يصـــبح أحـــد ســـدنة هـــتلر الجديد وزبانيته؟ ترى هل سيرسلونه إلى محرقة الحرب، لكي يقتل أناسًا لا يحمل تجـــاههم مشـــاعر حب أو ضغينة؟ وماذا تعني الحرب لشبه جائع وشبه متشرد وشبه عاطل؟ وأي قيم هذه التي يـــروّج لهـــا أهـــل المشـــروع الحضـــاري؟ ولمن أتى المشروع، وقياسًا على حالـــه وحال من يعرفهم ويحتك بهـــم ويراهم حولـــه في الشوارع ينتعلون بؤسهم على وجوههم فالأمر من سيئٍ إلى أسوأ منذ أن هبت العاصفة الصفراء ذات ليلة كالحة الظلام، ولم يكن الأمر قبلـــها منـــيرًا، لكن على الأقل كانت هناك رحابة في الصدور

وحوار لم ينقطع وإن شابته الفوضى. قبلها كان لا يهتم إلا بالقراءة وإشباع بعض رغباته ـ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً ـ لكن القراءة الآن محظورة إلا لما يرتضيه واضعو المشروع، أما الرغبات فقد استأثر بها واضعو المشروع حراس الفضيلة، الناجون من النار. ماذا لو هرب؟ وإلى أين؟ وكيف الفرار؟ ومن يعينه؟ ومن يؤويه؟ فأيوب لم يكن ابن عائلة كبيرة حتى يشبّه الناس هروبه بالهجرة النبوية، وتُفتح أمامه أبواب العالم، وتتغنى بمآثره الحسناوات. أيوب كان نفسه فقط. أيوب كان جائعًا خائفًا في عاصمة كتبت على مدخلها الآية "ادخلوها بسلام..."، لا أحد يأمن حتى نفسه خوف أن تشي به إلى الزبانية. لكن ما يساق إليه أيوب هو الموت المحقق. فإن لم تقتله التدريبات الهمجية فستقتله الحرب، وإن رفض الذهاب فسيقتله الجوع في عاصمة الغبار والجوع الإجباري والهتافات المدوية التي أرعبت أمريكا وروسيا.

خطوات متثاقلة تلك التي مشاها أيوب وهو يعبر باب المعسكر الرهيب. كان يدخل وقد امتلأ رأسه حتى الثمالة بعد محاضرات مطولة من مجموعة من النازيين الصغار. كانوا يتميزون بقبح غير معهود في البشر. وكان أحد أقبحهم يجمع ما بين قبح المنظر واللسان، وكانت نظراته "محترفة شبقة" ذكّرته ببائعة الفول في مصلحة الثقافة. كان نحيل القامة، ذقنه مدببة ونظراته نفاذة، كان يعري الرجال بعينيه، ولا يبدو أنه يشتهى النساء. ناداه الشيخ الدميم واسمه "مفتاح الظلام" بعد المحاضرة وذهب به إلى خيمته في أطراف المعسكر التمهيدي. خاف أيوب وأراد أن يدعو بعض المجندين لكي يذهبوا معه لكنهم رفضوا وفي أعينهم نظرات ما بين الرثاء والسخرية لكنها كانت تخفي رعبًا واشمئزازًا وعجزًا لا مثيل له.

اختلى به الشيخ النازي القبيح ووضع يديه المعروقتين علـــى كتفيه ثم أخذ يحدثه لاهثًا عن العلاقة الحميمة بين الأحـــبة "في الله"، وأنه "لا عيب إلا العيب"، وأن الحب الحقيقـــي هـــو أن يستســـلم الأخ لأخيه بدون سؤال أو "مقاومـــة". لم يدرك أيوب مغزى ما قالـــه الشيخ الدميم فـــي البداية لكن جحظت عيناه رعبًا عندما ارتمى عليه "مفتاح الظلام" يعانقه ويحاول تقبيل فمه. لم يَدْرِ ما حلّ بـــه لكـــنه تسمّر في مكانه كشجرة عارية من الأغصان والأوراق، ثـــم انـــتفض فجأة عندما بدأ "مفتاح الظلام" يجـــرده مـــن ثـــيابه. فلم يدر إلا وهو يلطم الشيخ على وجهـــه حـــتى جندلـــه أرضًا. سال خيط من الدماء من شفة الشيخ الدميم. لعق الشيخ دمه وابتسم بصورة تدعو إلـــى الغثـــيان، ثم أراد أن يقف على قدميه مرة أخرى فـــركلـــه أيـــوب بجنون. لم يتأوه الشيخ أو يصرخ بل طفق يستعطف أيوب ويرجوه بشدة وهو يلـــهث:



ـــ أرجــوك يـــا أيوب. ليلة واحدة فقط وستعود إلى عملــك. بــل يمكننـــي أن أعينك مديرًا لمصلحة الثقافة.

ـــ يا شيخنا احتشم.

ـــ لكني أعشقك.

ـــ يـــا شـــيخنا حاول أن تقلد أقرانك فما تطلبه عار أبدي.

ـــ دعنـــي مـــن أقراني وإخواني. أرجوك ركِّز على محنتي.

ـــ سأقتلك لو حاولت مسي.

ـــ أموت فقط بعد أن أتذوقك.

ـــ والله يا شيخنا.

ـــ فقط قل نعم.

ـــ يا شيخنا أنتم أصحاب مشروع إسلامي وفيكم من الفضـــلاء العقلاء كثيرون. لماذا هذا الدنس؟ وما يجبرك عليه؟ أرجوك دعني أمضي في حالي.

أجهش الشيخ بالبكاء وهو يستعطف ويتعلق بقدمي أيوب كالطفل الملحاح.

رفض أيوب وهز رأسه وهو لا يصدق أن كومة العظام التي تثير الرثاء هذه، هي نفس الشيخ الذي كان يحاضر عن الاستشهاد، والتضحية والإباء وقيم الرجولة الحقيقية!! وهنا نفد صبر "مفتاح الظلام" وخيّره لآخر مرة بين فراشه أو "الجهاد" فاختار أيوب "الجهاد" بإباءٍ شديد، وهو يعلم الثمن؛ أي الإرسال إلى معسكرات الانتحار الجماعي المسماة مجازًا معسكرات التجهيز القتالي.

خطوات نحو الهاوية:

كانت آخر تلك المحاضرات "كيف تهزم أمريكا في سنتين". وتناولت المحاضرة كيفية هزيمة أعداء الله الذين لا شك سيولّون أدبارهم بعد سماع تكبير أشاوس المجاهدين عبر القناة الفضائية الحضارية. وقبلها محاضرة عن "فضل الملاريا في تنقية العقيدة"! وأسهب المحاضر ـ وكان طبيبًا من أطباء المشروع

الحضاري ــ كيف أن الحمي كانت من أمراض الأنبياء وأنهــا مــن قبيل الابتلاء الذي يتعرض لــه المؤمنون. وأن الجــأر بالشــكوى مــن نقص الكلوركوين ــ دواء الملاريــا ــ هو نوع من الكفر بالنعمة، وإنكار لأفضلية المشــروع الحضــاري. ثم دعا المحاضر إلى التضحية بالــنفس، وأن المقابل سيكون منزلاً "مدعومًا" من منازل الجــنة وحوريــة من الحور العين، وما تيسّر من أنهار الخمر الصافية، وبحار من العسل. عندما انتهى التوجيه المعــنوي كــان أيوب يعلم أن الخطوة التالية لن تكون التدريــب العسكري ثم بعدها العودة إلى الخرطوم، كان يعلم أنه سيرسل إلى المحرقة.

الجحيم بعينه:

دخل أيوب معسكر التجهيز القتالي وما زالت كلمات آخر المحاضرين ترن في أذنيه اللتين كانتا تتصببان دمًا بعد اصطدامه بثيران المشروع الحضاري.

"ســندكّ عــرش أمريكا، ونهلك قيصر، وندوس على إيوان كسري، وسنستعيد الأندلس. وبالطبع سيتم تحرير

فلسطين ونحن في طريقنا لهدم البيت الأبيض". وتساءل المحاضر في ذكاء يُحسد عليه: ترى هل نقبض على جند الفرنجة أسرى حسب معاهدة جنيف، أم نسترقّهم؟ وأضاف المحاضر يحضّ على سبي نساء الفرنجة. لكنه نصح بالزواج منهن، ثم إعتاقهن؛ وذلك حتى يدخلن الإسلام طواعية. وهز رأسه بينما كانت الدموع تسيل من عينيه في خشوع، وهنا سادت حالة أقرب إلى الهستيريا الجماعية، وانتحب بعض كبار المجندين بأصوات عالية. ثم بلغ الشيخ الذروة عندما أضاف مستنكرًا "ويتعجبون من سماحة المشروع الحضاري وشيوخه الكبار الذين ينتوون مسامحة الفرنجة بل وتشريفهم بنكاح نسائهم"! وساد جو من التقوى والورع، وداعبت الجميع أخيلة نساء الفرنجة الحسناوات وهن يرمين بأنفسهن على المجاهدين الذين سيقتحمون البيت الأبيض مهللين مكبرين، وساد صمت مهيب، ولمعت أعين الشباب شبقًا وشوقًا إلى ذلك اليوم الموعود. أما أيوب فقد ركبه القرف من رأسه حتى أخمص قدميه.

بعد تلك المحاضرة وزعت عليهم كتيبات فاخرة الطباعة تشرح الخطوات اللازمة لهزيمة أمريكا، أو كما سماها الشيخ الدميم "كيف تهزم أمريكا في سنتين". وكانت تشبه كتاب "تعلم الفرنسية في خمسة أيام"، مليئة بالتعميمات لكن بدون ممارسة عملية ــ ضحك أيوب في أسى فقد كانت تلك الكتيبات من إنتاج مصلحة الثقافة، ولعلها كانت من ضمن الغثاء الذي كان يكتبه!

كانت أولى الخطوات:

تقرير بأن معظم أهل أمريكا من أكلة الخنازير الزناة، وهم بالتالي جبناء، ولهذا فهم يختفون وراء صواريخهم وأسلحتهم المتقدمة. والسبيل الوحيد لهزيمتهم هو إدخال الرعب في قلوبهم. إذن فالبداية هي نشر الرعب ما استطعنا إلى ذلك سبيلاً. وإن لم نتمكن من تنفيذ بعض العمليات في العمق الأمريكي "هكذا!!" فلنُشِع الرعب في بلادنا وبلاد جيراننا.

ثاني الخطوات كانت:

أمـــريكا أســـيرة لإعلامهـــا، وبالتالي علينا أن نحرر مواطنـــيها من أسر إعلامهم الضالّ. يجب على إرسال قناتـــنا الفضائية أن يخترق إعلامهم، وبلغتهم، وسيرون كـــيف نستطيع بإعلامنا الرسالي، وإمكاناتنا المتواضعة أن نهزمهم ونعريهم ونكشف تردي أخلاقهم.

ثالث الخطوات كانت:

أن نهجم على أي هدف أمريكي في أي مكان نستطيع الوصول إليه في العالم، مدنيًّا كان أم عسكريًّا. لكن وبما أنـــنا لا نـــريد لفـــت الأنظـــار إلى إمكانياتنا الضخمة، فسنركز على الخطوتين الأولى والثانية.

تصـــفح أيوب الكتيب الفاخر الذي قُدِّم لـــه. وقرأ ما فـــيه وكان الشيخ الدميم ينتظر كلمات الاستحسان. لكن أيوبًـــا تســـاءل فـــي براءة: كيف لنا أن نفكر في غزو أمـــريكا قبل أن نحسم أمر التمرد في بلادنا نحن؟ وهنا تصـــايح المجاهدون في فظاظة وهددوه بالويل والثبور، وعظـــائم الأمـــور، ونعَتوه بالضعف والتخلف والجبن.

وصـــاح المتحدث من منبره: أيها الجبان الرعديد.. والله لـــتطأنَ سنابك خيلنا قاعات البيت الأبيض، والكريملين، وقصــــر إليزابيـــث، ووالله ســـننكل بـــرجالـــهم، ونيتّم أطفـــالهم، ونـــثكل أمهاتهم، ونرمّل نساءهم. يبدو يا أيها الـــرعديد أنـــك تحتاج إلى عقاب سريع ينجيك من شر نفســـك!! ثـــم بعدهـــا تدخـــل في تدريب مكثف تمهيدًا لإرســـالك إلى مواقع الجهاد، عسى أن تنال الشهادة في سبيل الله سريعًا.

أومـــأ الشيخ الدميم برأسه فإذا بمجموعة من الثيران البشـــرية تحـــيط بـــه. كـــانوا يتصايحون ويتضاحكون ويزمجـــرون فـــي آنٍ واحد، كأنما هم حيوانات كاسرة عـــثرت علـــى فريســـة. كانت أجسامهم ضخمة تنتفخ بالعضـــلات، وتحولت البلاهة في وجوههم إلى غضب وحشـــي. أخذ أيوب يدور في مكانه ينظر في وجوههم. كـــان هناك تعبير مشترك يصِفهم جميعًا لكنه غاب عن ذاكـــرته، ربما سمعه في فيلم هندي. ثم بلا مقدمات بدأ الثيران في ضربه، كانت كل ضربة كصدمة من شاحنة تسير بسرعة مليون ميل في الساعة. صفعوه على وجهه

حتى نزفت أسنانه، ركلوه في خصيتيه، ولكموه في بطنه وظهره. حاول أن يحمي رأسه وخصيتيه، بل وحاول أن يــرد لكمــة تلقاها من أحد الثيران لكنه لم يستطع، فقد تــراخى جســده، ثم ترنح برهة غاب بعدها عن الوعي لفــترة لــم يستطع تحديدها. ثم استيقظ ليجد نفسه أمام معسكر التجهيز القتالي.

أيوب يدق باب الجحيم:

كانــت الدماء تلطخ ثوب أيوب، كان ينزف من فمه وأذنــيه وصــدغيه، وكــان كل عضو في جسده ينضح بــالألم. تحسس عظامه فكانت سليمة. "على ما يبدو أن الثيران يعرفون كيف يؤلمون بدون إحداث أذى حقيقي". وبيــنما كــان أيــوب يفكــر في كيفية استثمار وضعه المــزري. لكن لا رحمة في دولة المشروع الحضاري. كانــت هناك "توصية" خاصة من الشيوخ بأيوب. فجأة نــودي على اسمه في الميكروفون، "المجند أيوب صابر توجــه إلى كتيبة الموت السريع". سمع أيوب النداء لكنه لم يستجب. كان يحسب أنه سيختفي في زحام المجندين. تكــرر الــنداء مــرة.. مرتيــن.. ثلاث.. رفض أيوب

الاستجابة. وهنا أحس أيوب بأن أعين المجندين من حوله تركزت عليه. أولاد القحبة. إنهم يعرفون صورته إذن. تلفت حوله بحثا عن مخرج. لكن هيهات، فكل المنافذ تحيط بها أسلاك شائكة طولها يزيد على عشرة أمتار. ولا سبيل إلى الخروج من هنا إلا بإذن خاص من أحد الشيوخ النافذين، أو جثة هامدة.

تكرر النداء، وهذه المرة تبعه تهديد: "المجند أيوب صابر أنت تدخل الآن تحت طائلة المادة الأولى من قانون عقوبات كتيبة الموت السريع، للمرة الأخيرة توجه إلى مدخل الكتيبة فورًا". لكنه لم يتوجه إلى الكتيبة المذكورة. لعنة الله عليكم. الموت السريع. أليس هذا من قبيل الانتحار؟ أوليس الانتحار حرامًا؟ لكن أولاد القحبة لا يعرفون الحرام أو الحلال أو الإنسانية. وجوه شائهة، وقلوب كالحجارة. وقف أيوب وهو يسبّ ويلعن، وارتفع صوته: لن أذهب إلى كتيبة الزفت السريع وافعلوا ما تريدون، لكنني لن أذهب.. لن أذهب. أحاط به بعض المجندين المخضرمين وأخذوا يستعطفونه: "أرجوك اذهب إليهم؛ فعقابهم سريع، وهم لا يتورعون عن

شـــيء".. "بحـــق الله". صـــرخ أيـــوب مرة أخرى: لن أذهـــب.. لـــن أذهب. وهنا أحس بيدين كأنهما قُدّتا من صـــخر تمســـكان بتلابيـــبه ثم تطرحانه أرضًا. ركلـــه أحدهم في أذنه اليسرى والتي كان الدم ما زال يسيل من جانبيها.

كانـــت اللكمات والركلات تمزقان أحشاءه. بصق دمًا وتلطخ قميصه ولم يرحمه أحد، ثم ربطه واحد منهم إلى ظهـــر سيارة نقل. جرته السيارة على الرمل والحصى والأشواك، حتى تمزق جلده. كان كل متر يقطعه يمزق قطعة من جلده ولحمه. كان الألم حادًّا في البداية ثم فجأة غاب عن الوعي.

سراب الجنة:

استيقظ أيوب في خيمة فاخرة الأثاث. كانت مفروشة بســـجاد حقيقـــي ويتوسطها سرير مريح قربه منضدة، وعلـــى المنضـــدة مصحف وطبق مليء بالفاكهة. كانت الخـــيمة مكـــيفة الهواء. حسب أيوب أنه قد دخل الجنة، وأنه على وشك لقاء الحور العين. أم تُراه كان يحلم بأنه

قد استيقظ، بينما هو في الحقيقة ما زال نائمًا أو غائبًا عن الوعي. حاول أن يتفحص ما حوله فلم يستطع. أقفل مقلتيه الداميتين، ثم تحسس رأسه وفمه وجلده فأحس بسائل لزج يلطخ راحتيه. إنه ما زال ينزف. فجأة أحس بتيار هواء ساخن يلفح جلده. فأغمض عينيه ولم يتحرك خوفًا أن يكتشف مَن دخل عليه عودته إلى الوعي. حلم أو لا حلم، إنه لم يكن ليجازف.

أحس بيدين خشنتين تحملان جسده المنهك. فتح عينه اليسرى ليرى مَن هذا الذي أشفق عليه، لم يميز الوجه. فأغمض عينيه مرة أخرى، فجأة وجد نفسه في حوض مياه فاترة كان لها فعل السحر في جروحه. وأحس باليدين الخشنتين تجردانه من ملابسه التي التصقت بجسده. ثم أحس بسائل بارد دهني يغمر جسده. ثم أعملت اليدان تدليكًا لكل أنحاء جسده بما فيها عضوه التناسلي. أحس بانتصاب لم يدر كنهه بينما أبقت اليدان على عضوه تغمره بذلك السائل الدهني. ودارت رأسه من أثر رائحة الماء الفاتر ورائحة السائل الدهني الذي لا بد أنه كان مرهمًا من نوع راقٍ ــ فقد كانت تفوح

مـــنه رائحـــة كالصـــندل ـــ وكان التكييف قد حوّل جو الخـــيمة إلـــى واحة عليلة النسمات وسط تلك الصحراء القاحلـــة. حاول أيوب أن يفتح عينيه؛ ليعرف من الذي يضمد جراحه ويتحسس جسده بتلك البذاءة الناعمة، لكنه سرعان ما غاب عن الوعي مرة أخرى.

هذه أولى بوابات الجحيم يا أيوب:

استيقظ أيوب بعد فترة لم يدرك مداها، لكن لا بد أنه غـــاب عن الوعي أو نام يومًا كاملاً فعندما استيقظ كان جسده مضمدًا بكاملـــه. وكان كل عضو منه يشتكي من الألـــم وإن كان النزيف قد توقف. أحس بجوع وعطش شـــديدين. مـــد يده إلى طبق الفاكهة الذي استوى فوق المنضدة مليئًا بالموز والتفاح والعنب. وكان لم ير العنب أو التفاح منذ عشرة أعوام تقريبًا إلا في المجلات أو في بعـــض المـــتاجر الاستثمارية. أكل تفاحة حمراء قانية، أحس بحلاوتها في فمه، فأكل بنهم شديد، ثم انقض على العنـــب حتى أتى عليه. شرب أيوب من الماء البارد، ثم نـــام مـــرة أخـــرى حتى العصر. عندما استيقظ أيوب اكتشـــف أنـــه تبول على نفسه، حاول أن يتزحزح عن

الفـــراش لكنه لم يستطع، فالألم كان يمزق جراحة داخل الضـــمادات، حـــاول أن يغطي نصفه الأسفل الذي كان عاريًـــا تمامًا فلم يستطع. أصابه قهر شديد وطفق يبكي بحرقة ثم غاب عن الوعي.

الجسد يتلاشى قبيل الهزيمة:

لبث أيوب في الخيمة أيامًا لا يعرف طولـــها. أخذت الجـــراح تلتـــئم، لكن مفاصلـــه ما زالت ضعيفة. كان يتحرك بصعوبة، كان ينام ويستيقظ فإذا بالخيمة نظيفة، وبصـــحن الفواكه مليء بالتفاح والعنب. كان يأكل وينام ويقضي حاجته.

ثاني بوابات الجحيم:

تملـــك أيـــوب إحساس بأنه لم يكن وحيدًا. حاول أن يلتفـــت فما استطاع ذلك في البداية، ثم التفت إلى يمينه فوجـــد وجهًا يطالعه، وكانت تلك الجهة التي يأتي منها ضوء الشمس قبيل الغروب. تفرس في الوجه مليًّا حتى استطاع أن يتبين ملامحه. صرخ أيوب فزعًا فسارعت اليد الخشنة إلى تكميم فمه.. إنه الشيخ الدميم!! ما الذي

أتـــى به إلى هنا؟ ألم يعاقبني مرة أولى؟ ترى أهو قائد كتائـــب الموت السريع؟ كيف الخلاص؟ لا خلاص، فهو في قلب المعسكر وفي خيمة القائد.

كـــن كما أنت لا تتراجع. الموت أهون من الامتهان. الحـــب انقضـــى فما عاد هناك إلا الدم الذي يسيل من جانـــب الفـــم بعد آخر ركلة إلى الحجاب الحاجز. نعم سيقتلـــه ولو ركلـــه الزبانية بعدها حتى الموت. سيقطع أوصـــالـــه إربًا إربًا. سيأكل كبده ثم يرميها إلى الكلاب الضالة ستنهش لحمه، سيقتلع عينيه.

كـــان أيوب يتخيل هذه الفظائع وهو يحسب أن القائد الشـــيخ ســـيحاول أن يجبره على الكريهة. لكنه فوجئ بالقـــائد يبكـــي ويستعطفه: أرجوك دعني ألمس جسدك وأنـــت راضٍ عنـــي. حاول أن تعشقني. أرجوك خذ ما تـــريد، إدارة الثقافة أنت مديرها منذ هذه اللحظة، سأبني لـــك مســـرحًا. ســـأعفيك من الذهاب إلى المحرقة، بل وســـأعطيك وسام شجاعة على بلائك الحسن، سأرشحك كـــي تكون وزير دولة، أو سفيرًا. فقط اعشقني، أعطني

مـــا تعطـــي العروس البكر بعلـــها ليلة الزفاف. سأقبل الأرض التـــي تمشـــي فوقها. أريد أن أكون محظية لك عشـــيقة وأنـــت رجلـــي. لـــن أطالبك بالكثير، ليلة في الأسبوع أو الأسبوعين، أريدك أن تفعل بي ما تشاء.

هل يستسلم البطل؟

دار رأس أيوب، وجراحه التي كادت أن تلتئم أخذت تؤلمه مرة أخرى، العرض الذي قدمه الشيخ البشع كان مغـــريًا للغاية. لكن أين عِزة نفسك يا أيوب؟ رجولتك؟ كرامـــتك وما تعلمته منذ الصغر؟ لكن المنصب والمجد والسؤدد، ويمكنك أن تغير حياة أختك وخالتك وحتى أن تقـــتل كل شيء وتتزوج أجمل ما في عاصمة الغبار من نساء، أو أن تعيش حياة بوهيمية لم يسبقك إليها إنسان؟! إن عشـــقتك واحدة يا أيوب فستعتبرها من ضمن قطيع الحـــريم هـــي والشيخ الآسن. بِعْ ما تبقّى مِن نفْسك يا أيـــوب فالإباء سلعة بائرة، ثم ألم تَبِع نفسك بثمنٍ بخسٍ قَبْلها عندما قبِلتَ العمل مع الزبانية؟ ما فـــرْق اللـــواط



الحســـي عـــن المعنوي؟ قدم للمأفون ما يريد ثم اخترق الحواجــز الطبقــية والأكاديمية، ولماذا لا يقبل العرض الأثــيم، وهو سيعود إلى الخرطوم معززًا وإلى مصلحة الثقافة مباشرة ليطرد الحضاري السمج، وعندها سيغير مـــن أثـــاث المكتب، ويطرد ذاك الساعي اللئيم أو ربما يرقـــيه إلـــى مرتبة نائب مدير. نعم سيبيع ما تبقى من نفسه وطُزّ في الماضي وطُزّ في الحاضر وهو يعلم أنه لا مستقبل. ما يهمه هو أن الكون صار الآن بين يديه.

نعـــم، صمت أيوب برهة، ثم أقسم ما بينه وبين نفسه على أن يحاول إغلاق مشاعره، وأن يتحول إلى سراب. سيرضـــى بما يريده الشيخ. سيمشي في منتصف الظل جـــزءًا مـــن خيال، وسيقتل الأحاسيس التي كانت تؤرق ضـــميره الذي سيختفي في مخدع الشيخ السمج. سيسمع الكثـــير ويـــتلقى الكثير وينجز الكثير مقابل خدماته التي يقـــتطعها مـــن كـــيانه الذي انقضى تحت وطأة الشيخ. سيرضـــي شـــذوذه مقابل مكان تحت الشمس الحارقة. سيرفض التواري خلف المحسنات البديعية. سيتحول إلى "لوطـــي" رغـــم أنف تكوينه وثقافته وأخلاقه التي كانت

هناك يومًا. وتمنى لو عادت به الأيام إلى تلك الحانة في بـــراغ، فربما كان سيصبح زوجًا للوطي من براغ لكن بكـــامل وعيه واختياره، بدلاً من عشق هذا الشيخ الذي يصلي ركعتين ثم يتجرد من ملابسه الداخلية عند رؤية أول رجل متناسق العضلات.

بقدر ما مضى يستبسل أيوب في جهادية خاصة:

هـــز أيـــوب رأسه وهو يقود عربة جديدة في طريقه لملاقـــاة عشيقه، وقال لنفسه بعد أن بصق على خيالـــه فـــي المرآة الصغيرة، كلـــهم أمة واحدة. يختلفون على الغنـــيمة ويتفقون على أيوب. وأيوب يمارس السير في منتصـــف الظـــل. إنه الظل النائي بعد فوات الظهيرة. الظـــلام كـــان للهمس بالكلمات، والصبر على الرذيلة، تذكر يومًا قال لـــه أبوه: اعتدل في مشيتك ولا تطأطئ برأسك.

كـــان يضـــحك علـــى نفسه ثم يدعي الشموخ مرة، ويضـــحك مرة، وقد يذرف دمعة من فؤاد مكلوم وبقايا

ضـــمير، ســـرعان مـــا يمســـحها بقرف، فعشيقه يكره الأحزان، وقد وعده بأن يهديه قسمًا لا بأس به من غنائم جديدة وصلت إلى عاصمة المشروع، والشيخ لا يعطي إلا وأيـــوب مبتســـم فـــي وداعة، وقد بدت على عينيه علامات الحب والولـــه.

فهرس

من إصدارات الدار

1 ـ تحت سحر مصر (مقالات)

د. مرسى سعد الدين

2 ـ رجال النبيلة الأولى (رواية)

سوسن بشير

3 ـ استخدامات الإنترنت في مصر والعالم العربي (دراسة علمية ورؤية مستقبلية)

د. رشا عبد الله

4 ـ ما قبل وفاة ملك (قصص)

د. محمد نجيب عبد الله


دار القبس
للطباعة وفصل الألوان
ت: ٣٦٤٠٨٣٥ - ٣٦٨٥٦٢٨ - ٥٢٤٣٣١٤